



مأزق السيميائية

(قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومية والإجرائي)

قادة عقاق

جامعة سيدي - بلعباس - الجزائر

agagkada@yahoo.fr

Received: 18 Dec. 2013,

Revised: 15 Jan. 2013, Accepted: 23 Feb. 2014

Published online: 1 May 2014



مأزق السيميائية

(قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومي والإجرائي)

قادة عقاق

جامعة سيدي - بلعباس - الجزائر

الملخص

تحاول هذه الدراسة الخوض، بشيء من التركيز والتكثيف، في الحصيلة النقدية للنظرية السيميائية، وبخاصة (السيميائيات السردية)-المحاثة-لصاحبها أليجيرداس جوليان غريماس (A. J. GREIMAS)، واضعة اليد على النقائص التي انطوت عليها، راصدة بعض المآخذ التي اكتتفتها، مُفصّلة القول في الانتقادات التي وُجّهت إليها (غريباً وعربياً)، مبيّنة وجهة بعضها وتهافت بعضها الآخر، دون إغفال لتلك الآراء التي حاول أصحابها إنصاف هذه النظرية وبيان ما حققتة.

الكلمات المفتاحية: سيميائية، سمة، نص، خطاب، مربع سيميائي، بنيات زمانية وفضائية، مستوى سطحي، مستوى عميق، سردية، مسار توليدي، بنية عاملية، برنامج سردي.



The Predicament of Semiotics

Kada Agag

University of Sidi-Bel-Abbès, Algeria

Abstract

This study is an attempt to shed some light on the concept of semiotics, more specifically on A. J. GREIMAS semiotic narrative -Immanence-. It sheds some lights on some significant drawbacks; some related approaches, as well as some current Arabic and Western criticisms opposing this theory. Furthermore, it highlights major positive and negative views so far as this issue is concerned without losing sight of the owners of those views who tried to both re-establish this theory and make clear what it has achieved.

Keywords: Semiotics, sign, text, speech, semiotic square, isotopy, space-time structures, surface level, deep level, narrativity, generative course, actantial structure, character.

مأزق السيميائية

(قراءة في الحصيلة النقدية لجهازها المفهومي والإجرائي)

قادة عقاق

جامعة سيدي - بلعباس - الجزائر

تمهيد:

سائدة قبلها، وما ساقته من مفاهيم وإجراءات متنوعة توجت بزوغها، وصاحبت ظهورها وانبثاقها ففتحت من خلالها أفاقاً جديدة للوصف والتحليل، لتكون بذلك صرخة مدوية في سماء النقد الأدبي الجديد.

غير أن هذا النجاح الذي حققته هذه النظرية في مقاربتها لمختلف مجالات الإبداع الإنساني، لم يُنس الدارسين الغربيين منهم والعرب على حد سواء، التفتن إلى بعض النقائص التي انطوت عليها، والإشارة إلى بعض المآخذ التي اكتفتها. وهو ما تحاول هذه الدراسة الخوض فيه بشيء من التركيز والتكثيف، مقتصرة على السيميائيات السردية - المحايثة - لصاحبها أنجيرداس جوليان غريماس، مبيئةً وجاهة بعض هذه المآخذ وتهافت بعضها الآخر، دون إغفال لتلك الآراء التي حاول أصحابها إنصاف هذه النظرية وبيان ما حققته.

وبناء على هذا، فقد قُسمت الدراسة إلى مبحثين اثنين، خُصص المبحث الأول للانتقادات التي وُجّهت إلى بعض مفاهيم هذه النظرية من لدن الدارسين الغربيين. في حين تكفل المبحث الثاني برصد تلك الانتقادات التي وُجّهت إليها من قِبَل الدارسين العرب، دون نسيان تلك الآراء التي تشيد بفتوحاتها المنهجية، وتؤه بمدى تأثيرها في النقد والدارسين المجايلين لرائدتها أ.ج. غريماس والتالين له.

شهد الفكر النقدي منذ عشرينيات القرن الماضي حراكاً علمياً لافتاً، تمخضت عنه جملة من التطورات المنهجية والمعرفية التي انعكست بشكل جلي على مستويات تحليل النص الأدبي وزوايا مقاربه. وقد أسفر هذا التطور المنهجي والحراك المعرفي عن بروز تغيرات جذرية مست طرائق التفكير ومناهج التحليل الهادفة إلى مسانيرة الإبداع الأدبي والابتكار الفني في سيرورتها التطورية.

ولقد تجسّد ذلك ضمن نظريات نقدية متعددة، حاول كل منها أن يتصف بالعلمية بكل مقوماتها ومعاييرها ومواصفاتها؛ من موضوعية، ومرجعية فكرية صلبة وثرية، وصرامة منهجية لافتة، ومفاهيم وإجراءات متنوعة تستعين بها على الولوج إلى أعماق النص الأدبي، والإمساك بميكانيزمات اشتغاله.

وتعدّ السيميائية بمختلف اتجاهاتها ومدارسها وروادها، من أهم النظريات النقدية التي عرفها القرن العشرون - وإن لم تكن أكثرها اكتمالاً - بالنظر إلى ما حققته من فتوحات منهجية في مواجهة مختلف النصوص: أدبية كانت أم غير أدبية، ومن مقاربات تحليلية حالفها النجاح في كثير من نماذجها المضيئة. تأتى لها ذلك من خلال ما تضمنته من أفكار جريئة زعزعت الكثير من الفضاعات والمواضعات والتصورات التي كانت

وما أثير حولها من جدل^(٢). ولكن على الرغم من هذا المدى الزمني المعتمد نسبياً، إلا أن السيميائية لا زالت تعاني مشاكل جمة، سواء أعلى المستوى الأنطولوجي أم على المستوى الاستيمولوجي.

فإن كانت مشاكل النشأة والتبلور تتمثل في بعض جوانبها، في ذلك الظهور المتضخم بعد دروس دي سويسير (F.DE Saussure) وأعمال بيرس (C.S. Peirce)، لحشد كبير من المدارس والاتجاهات التي لا تتعارض - كما يذهب إلى ذلك مارسليو داسكال

١- السيميائيات السردية: مرجعيتها ومستويات النص ومكوناته لديها:

يتفق أغلب الدراسين والمهتمين بالتأريخ للحقل النقدي، على أن البداية الفعلية للبحث السيميائي المعاصر سواء بتوجهه الأوربي (السيميولوجيا) أو بتوجهه الأنجلوساكسوني (السيميوطيقا)، كانت قبل أكثر من أربعة عقود من الزمن^(١)، بغض النظر عما اعترض هذه البداية من عوائق

٢- نشير هنا إلى اختلاف التسميات لهذا العلم ما بين (السيميوطيقا) و(السيميولوجيا)، وما رافق ذلك من جدل، لم تستطع حسمه كثير من الملتقيات والندوات التي أقيمت بغرض توحيد اسم هذا العلم وتحديد أطره، ابتداء من ١٩٦٥. حيث أقيم في شهر أوت من هذه السنة بـ "فرسوفيا" "Varsovie" ببولونيا، الملتقى الأول حول السيميائية. كما أقيم ثاني ملتقى بـ "كازيميرز" "Kazimierz" في السنة الموالية (١٩٦٦) تحت إشراف اليونسكو. وعقد الملتقى الثالث بـ "فرسوفيا" سنة ١٩٦٨. وحضره نخبة كبيرة من ألع الباحثين في هذا المجال من بينهم: ت.أ.سيبوك، إ.بنفنست "E.Benveniste"، أ.ديكرو "O.Ducrot"، ك.بريمون "C.Bremond"، جوليا كريستيفا "J.Kristiva"، وإ.إيكو "U.Eco"، وك. ميتز "C.Metz". كما تأسست في سنة ١٩٦٩ الجمعية الدولية للسيميائية التي رأس مكتبها "س. زلكوسكي"، "S.Zolkiewski"، وعادت أمانتها العامة لـ "أ.ج. غريماس، كما ضمت كل من كلود ليفي سروس "C.Levi Strauss"، ورولان بارث، وج.ك.كوكي، وأ.ديكرو، وج. جينات "G.Genette"، وجوليا كريستيفا وك.ميتز، وفرانسوا راستي "F.Rastier" وتودوروف وك.باكيس وج.كوهين". ونشير في هذا الصدد إلى أنه على الرغم من ذلك الاقتراح الذي تقدم به (غريماس) بخصوص تحديد الفرق بين التسميتين (سيميولوجيا/سيميوطيقا) من خلال التصريح الذي أدلى به لـ "روجي بول دروا" "Roger Paul Droit" بجريدة "لو موند" "Le Monde" بتاريخ ٧ جوان ١٩٧٤، والذي مفاده أن الفارق الذي يميز بين المصطلحين في اللغة الفرنسية - على الأقل - هو أن (سيميوطيقا) يدل على الفروع (سيميوطيقا الشعر، سيميوطيقا السرد، سينماتوغرافية... الخ)، بينما (سيميولوجيا) تهتم بالكليات، أي أنها نظرية عامة لكل السيميائيات، إلا أن الأمر بقي على حاله، ولم يغير هذا التحديد من الأمر شيئاً.

- لمزيد من التفصيل حول هذه القضايا، ينظر:

رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق (رواية نوار اللوز لواسيني الأعرج نموذجاً)، مخطوط أطروحة دكتوراه دولة، جامعة تلمسان (الجزائر)، ١٩٩٥، ص ٥٥، ٤٩.

١- تقصد تلك الإسهامات الناضجة لباحثين من أمثال (بارت وغريماس) وغيرهما، لا المحاولات الأولى المتعثرة. حيث أنه مع بداية الستينات أخذ البحث السيميائي المعاصر يأخذ طريقه إلى التبلور، سواء من خلال تلك الدروس التي كان يلقيها غريماس بكلية العلوم بباريس (معهد هنري بوانكري institut Henri Poincaré) ما بين سنتي ١٩٦٢/١٩٦٤ والتي نشرت سنة ١٩٦٦ في كتاب تحت عنوان "علم الدلالة البنيوي" "Sémantique structurale"، وكانت، كما يذهب إلى ذلك (ج. ك. كوكي J.C.Coquet)، بحثاً حقيقياً في السيميائية، على الرغم من كونه لم يستطع رفع الالتباس القائم بشأن تعدد التسميات (سيميوطيقا/سيميولوجيا) وتداخلها واختلافها لهذا العلم. أم من خلال ما قام به رولان بارث «R. Barthes» من بحوث في الفترة نفسها تقريباً. لمزيد من التفصيل ينظر:

J. C. COQUET " La sémiologie en France" in le champ sémiologique, sous la direction de André Hello, avec la participation de M. Arrivé, p. Range, J.C. Brodeur

édition complexes, Bruxelles 1979, P.16

لم تتبلور ملامحها بعد بصفة متكاملة، ولم تزل مجرد افتراضات، أو علم من بين علوم أخرى تعدّ ضرورية، لكنها غير كافية كما كان قد رأى (بارت) (R. BARTHES)^(٧) من قبل.

وإلى مثل هذا الرأي أيضا يذهب (ديكرو) (DUCROT) و(تودوروف) (T. TODOROV) في معجمهما، حينما يؤكدان أنه على الرغم من أعمال بيرس (C. S. Peirce)، ودي سويسر (F. DESaussure)، وإريك بويسنس، وجاكبسون (R. Jakobson)، وبارت (R. Barthes)، ولويس هيلمسليف (L. Hjelmlev)، وكارناب (Carnap)، وغيرهم... إلا أنه لا يمكن الحديث عن بناء علمي متكامل في السيمياء، لكون هذه الأخيرة تظل مجموعة من الاقتراحات أكثر منها علما، أو كيانا مؤسسا تأسيسا علميا^(٨).

نستنتج من خلال هذه الآراء - على الرغم من كون معظمها وليد مرحلة السبعينات من القرن الماضي - بالإضافة إلى آراء أخرى كثيرة تذهب المذهب نفسه^(٩)، أن السيميائية لم تكتسب بعد أركان العلم، فهي جملة من النظريات التي لا تكون صرحا متكاملا من المعارف، وهذا الوضع سببه الرئيس حسب (ديكرو وتودوروف) دائما، يرجع إلى هيمنة اللسانيات ومناهجها على ميادين خاصة بعلم العلامات^(١٠). ولعل هذا ما دفع ب (تودوروف) إلى الدعوة لفصلها عن اللسانيات حينما رأى أن السيميائية الأدبية يجب أن تنصهر ضمن ظاهرة أشمل وهي الرمزية اللغوية^(١١).

في رأيه الذي يوافق فيه جملة من الدارسين^(١٢) - من حيث النظريات السيميوطيقية المتنافرة التي تقترحها فحسب، بل وتتعارض أيضا من حيث تصورها لما يجب أن يشكل نظرية "سيميوطيقية" أو "سيمولوجية"^(١٣)، فإن السيميائية تعيش في الوقت الراهن حالة من الغموض الأنطولوجي والابستمولوجي، وهذه الحالة الطرفية ناتجة - حسب بعض الدارسين - عن غياب أسس علم العلامات، أو بالأحرى ضعفها. "فالسيميوطيقا المعاصرة تواجه تضخما في المقولات وفي الأسس والخطابات السيميوطيقية، تضخما يمس استقرار الموضوع السيميوطيقي ذاته، ومن هذا المنطلق أصبح من الضروري القيام بوضع أسس "تاريخية الإنتاج في السيميوطيقا" (la Historiographie de la sémiotique)^(١٤).

إن رأيا مثل هذا لا يؤكد سوى شيء واحد، وهو أن الصورة المعاصرة للسيميائيات ما تزال في طفولتها، لكونها لم تتحول بعد إلى سميولوجيا واحدة متوافرة على تجانس منهجي ومفاهيمي، ومن ثمة فإنها لا تزال في مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم^(١٥).

انطلاقا من هذا التصور، يمكننا أن نذهب إلى القول، إن النظرية السيميائية في طموحها اللامحدود إلى الشمولية، وعلى الرغم من الآمال التي فتحتها ويمكن أن تفتحها في وجه الدارسين، مازالت في طور الإنجاز والتشكل الهش؛ بحيث

٢- من بينهم جان كلود كوكي، الذي يرى أن الحديث عن السيميائية «يجري في اتجاهات مختلفة وبلا تميز»، ينظر:

J. C. COQUET "La sémiologie en France" in le champ sémiologique, (op.cit), p.5

٤- مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحمداني وآخرين، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط ١٩٨٧، ص ١٨.

5- S. Kim, «A propos d'un projet d'histoire de la sémiotique: questions et problèmes épistémologiques» Revue langages. N107, Septembre 92, éd. Larousse

عن محسن عمار، مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب، مجلة علامات، مكناس، المغرب، العدد ٢٠، ٢٠٠٢، ص ١٠٨.

٦- ينظر: مارسيلو داسكال، المرجع المذكور سابقا، ص ١٨.

7 - BARTHES, *Itylogie*, Ed. Seuil 1957, p.197

8 - Voir: O. DUCROT et T. TODOROV, *Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage*, Article sémiotique, Ed. du seuil. Paris 1972, p.p. 113 - 122

٩- مثل: أن اينو في كتابها «مراهنات السيميائية: Les enjeux de la sémiotique», éd. P.U.F. Paris 1979 مقالته: تحليل الرواية، ترجمة غسان شديد، مجلة العرب والفكر العالمي، ٥٤، شتاء ١٩٨٩، ص. ١٠١ - ١١٠

10- O. DUCROT, et T. TODOROV, *Dictionnaire encyclopédique...* P 113, 122.

11- T. TODOROV, *Symbolisme et Interprétation*, éd. Seuil. Paris 1978, p.p. 15 - 17.

(T.TODOROV)^(١٤).

أما التيار الثاني-السردية الدلالية، أو السيميائيات السردية- والذي هو محور حديثنا كما سبق القول، فهو يُعنى برصد البنى العميقة التي تتحكم بمظاهر الخطاب، وتهدف إلى تحديد قواعد ووظائفية للسرد^(١٥) كما تجلت في أبحاث غريماس وبريمون (BREMOND) انطلاقاً من جهود بروب (V. PROPP).

إنّ هذا التيار عكس التيار الأول^(١٦) اهتم بـ "سردية (Narrativité)" الحكاية دون الاهتمام بالوسيلة الحاملة لها -رواية، فيلمًا، أو رسوماً- ما دام الحديث نفسه يمكن ترجمته بوسائل مختلفة.

١٤- نشير هنا إلى أنه، بالرغم من أن مرجعية النقاد الفرنسيين واحدة، أو متقاطعة في مصادرها، إلا أن هناك اختلافات بيّنة في مستويات تقسيم النص وتحليله بينهم:
× فبارت على سبيل المثال، يميز في الأثر السردية، بين مستويات ثلاثة في الوصف، هي:
مستوى الوظائف.
مستوى الأعمال.
مستوى السرد.

وهي مستويات مترابطة على نحو اندماجي مطرد. فليس للوظيفة من معنى إن لم يكن لها داخل عمل الفاعل Actant موقع ما، كما أن العمل بدوره لا يتلقى معناه الأخير إلا عندما يكون مسروداً بواسطة خطاب يمتلك شفرته الخاصة.
أما تودروف، فيستعير من الشكلايين الروس تصورهم للمعنى، الذي يمثل في نظرهم عنصراً من عناصر الأثر الأدبي، وتتمثل وظيفته في إمكانية دخوله في تعلق Corrélation مع عناصر أخرى من نفس الأثر.
وقد اقترح الاشتغال على مستويين كبيرين منقسمين بدورهما إلى عدة مستويات:
فمستوى الخبر Histoire يتضمن مستوى منطق الأعمال، ومستوى علاقة الشخصيات -أو تركيبها-.
أما مستوى الخطاب ففيه أزمنة القص وأساليب السرد وأنماط الرؤية.

- ينظر: العادل خضر، يحكى أن... مقالات في التأويل القصصي، دار المعرفة للنشر، تونس، ٢٠٠٦، ص. ٢٢-٢٣.

١٥- ينظر: عبدالله إبراهيم، من وهم الرؤية إلى وهم المنهج،

مجلة الفكر العربي المعاصر، ٦٧، ٦٨، ص: ١٢٤.

١٦- نشير في هذا الصدد إلى أن هناك محاولات للجمع بين هذين التيارين أو التوجهين، لمزيد من التفصيل ينظر:
مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبشير، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٩، ص: ٩٧ وما بعدها.

فضلا عن هذا، فإن أحد أهم أسباب هذا الوضع- في اعتقادنا- هو شمولية السيميائية وتشعبها وطموحها اللامحدود، وتعدّد الميادين التي تُكوّن شجرة نسبها، و"تأخر العلوم المتصلة بها كالدلالية (la sémantique) وهي مثلها في التشعب والخلافات النظرية"^(١٢).

كان هذا فيما يتعلق بأصولها النظرية ومرجعيتها العلمية المتنوعة والثرية، التي كثيرا ما كانت محل طعن ومؤاخذاة.

أما فيما يختص بمفاهيمها الإجرائية، وآلياتها التحليلية ومستويات مقاربتها النص الأدبي، فيمكننا أن نذهب إلى القول، إنه إذا كانت السردية الفرنسية خصوصا، قد انصرفت -بصفة عامة- في مختلف توجهاتها وتشعباتها: بارت، غريماس، تودروف، جينات -إلى الاهتمام بمكونات الخطاب السردية، راصدة ضمن ذلك: مظاهره، وأبنيته، ومستوياته الدلالية، فإنها- أي هذه التشعبات- لا تكاد تخرج عن تيارين اثنين رئيسيين يؤطرانها ويحكمان مختلف توجهاتها وهما:

١- تيار السردية اللسانية.

٢- تيار السردية الدلالية، أو السيميائيات السردية.
فالتيار الأول- تيار السردية اللسانية- يُعنى بدراسة الخطاب السردية في مستوياته:

-التركيبية والعلائقية التي تربط الراوي بالمتن الحكائي. ويهّمها ليس الحكاية من حيث هي موضوع بل المحكي باعتباره صيغةً للتمثيل اللفظي للحكاية^(١٣) ويتزعمه كل من بارت (R.BARTHES) وجيرار جينات (G.GENETTE) وتودوروف

١٢- شعيب مقنونيف: في ماهية السيميائية الأدبية، مجلة بحوث سيميائية، يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة تلمسان، الجزائر، العدد ١، سبتمبر ٢٠٠٢، ص: ٢٦٢.

١٣- ينظر: مجموعة من المؤلفين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبشير، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٨٩، ص: ٩٧.

الممكنات السردية، وبغض النظر عن أي متن (Corpus)، غايته في ذلك محاولة إرساء قواعد صارمة لمنطق الحكيم وضبطها، فإن الثاني -غريماس- يحاول التركيز في أعماله المتعددة على عملية إنتاج المعنى انطلاقاً من مجموعة من الأحداث المترابطة فيما بينها.

إن ما يهم السيميائي كغريماس -ضمن تصور كهذا- في تعامله مع النصوص هو الشروط الداخلية للمعنى دون اعتبار لتلك العلاقات التي يقيمها النص مع أي عنصر خارجي عنه^(٢١)، مما يستلزم معه أن يظل التحليل -والحالة هذه- محايثاً مقتصرًا على فحص الاشتغال النصي لعناصر المعنى دون غيرها. وهو ما يعني أن المعنى سيُعتبر أثراً ونتيجة مستخلصة بواسطة لعبة العلاقات بين العناصر الدالة^(٢٢).

انطلاقاً من هذا التصور، نستنتج أنه لا يتم في نظر غريماس، "استخراج المعنى إلا بالكشف عن شبكة العلاقات القائمة في صلب النص، وحصرها، بربط الوحدات السردية وفق الغايات القصوى المقصود بلوغها"^{٢٣} على اعتبار أن العلاقة التي تربط جوهر الدلالة بالخطاب الأدبي هي علاقة توليدية، من حيث خضوع المعنى لديمومة النص، أي بنيته المتكاملة المغلقة، وبالتالي الاحتكام إلى عناصره الداخلية فقط.

وبهدف محاصرة النص، وتيسير وصفه وضبط القواعد المنظمة له، وصولاً إلى تحليله، لجأ أصحاب السيميائيات السردية وعلى رأسهم غريماس -كإجراء أولي قبل مباشرة أية إجراءات أخرى- إلى الاستعانة بما يُعرف بمستويات الوصف (Les niveaux de description)^(٢٤) حيث عمد إلى تقسيم النص إلى مستويين رئيسيين يتفرع كل واحد منهما بدوره إلى قسمين (مكونين) فرعيين متكاملين، هما:

٢١- ينظر: عبدالعالي بوطيب، كريماس والسيميائيات السردية، مجلة علامات مرجع سبق ذكره، ص. ٩٢.

22- Voir: Groupe d'Entre vernes, op. cit. p : 8.

23- Idem.

24- Ibid, p

إنه يدرس مضامين سردية، بهدف إبراز بنيتها العميقة التي تعتبر عادة كونية، دون اعتبار للجماعات اللسانية^(١٧). ذلك لأن السرد-من المنظور الغريماسي- يتجاوز حدود الأدبية، مما يجعل السردية تتحقق في أي عمل حكاوي -أو غير حكاوي- مهما كانت الأداة التي يتوسل بها في عملية التواصل والحكي^(١٨).

يركز هذا التيار في مقارنته للنص السردية، لا على الإجراء التلغفي وما يستتبعه من دراسة للفعل السردية وكل العناصر المتولدة عنه مثل:

١. المواقع المختلفة للسارد.

٢. والأنواع السردية ومستوياتها وحالاتها الخطابية.

٣. وكذا مختلف التظاهرات الزمنية التي تصب فيها التجارب الإنسانية باعتبارها أحداثاً^(١٩).

وإنما نجده يركز بصفة خاصة على: الملفوظ، أي على الحكيم باعتباره قصة، مما يعني النظر إليه بوصفه مجموعة من الأحداث المترابطة فيما بينها.

وبعبارة أخرى، فإن الأسئلة التي يطرحها رؤاد هذا التيار، ليست:

ماذا يقول النص؟

ولا: من قائله؟

ولكن: كيف يقول هذا النص ما يقوله؟^(٢٠)

تدخل في هذا الإطار كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعمال كل من بريمون وغريماس، انطلاقاً من بروب وتطويراً لطروحاته.

وإذا كان الأول - بريمون (C. BREMOND) - قد حاول الكشف عن المنطق العام الذي يحكم

١٧- المرجع نفسه، ص. ٩٧ وما بعدها.

١٨- ينظر: الطاهر رواينية، سرديات الخطاب الروائي المغربي الجديد، مرجع مذكور سابقاً، ص: ٢.

19. Voir: G.GENETTE, Figures III, éd, Seuil collection poétique, paris 1972.

20. Voir: Groupe d'Entre vernes, analyse sémiotique des textes, éd. P.U.L. Lyon. 1979. p: 7.

بالضرورة- دراسة المستويين (البنيتين) معا، ومعاينة العلاقة القائمة بينهما؛ إذ أنه يستحيل البحث في أحد المجالين دون الآخر، لكونهما يشكلان وجهين لعملة واحدة، هي الخطاب كيفما كان جنسه.

إضافة إلى هذا فإن البنية العميقة تستدعي البنية السطحية وتستحضرها؛ لأن " جذور الدلالة لا تمرُّ بإنتاج المفوضات وعلاقاتها بالخطاب بل هي موصولة في خطابها بالبنيات السردية المنتجة للخطاب المفصل إلى ملفوظات"^(٢٧).

كما أن البنية السطحية تستدعي بدورها هي الأخرى البنية العميقة، لكونها حاملة لشفرات (Codes) وإشارات (Indices) يستلزم حلها دلاليا الارتكاز إلى عوامل للتقابلات الضدية الكامنة وراءها. مما يعني أن السردية تعد- والحال هذه- بنية ضمن نظام الحكاية منبسطة بشبكة من العلاقات الواسعة داخل الخطاب، كونها ظاهرة لتتابع الأحداث من حالات وتحويلات، ترمي إلى استخلاص الدلالة انطلاقا من الوحدات التعبيرية المكونة لها^(٢٨). ذلك لأن التتابع البسيط للمفوضات السردية، كما يقول غريماس " لا يُعدُّ معيارا كافيا للأخذ بنظام الحكاية، ما لم يتم الكشف عن الإسقاطات الاستبدالية التي تسمح بالحديث عن وجود البنيات السردية"^(٢٩).

أي أن الدراسة السردية لا يمكنها ضبط نظام الحكاية والتعرف إلى بنياتها السردية، إلا بتضافر المحورين النظمي (Syntagmatique)- في علاقاته ذات الطبيعة الخطية الخاضعة لمبدأ التجاور والمشكلة لذلك الطابع المسير للحكاية- والاستبدالي (Paradigmatique)- في تقابلاته واختلافاته ذات النظام التعارضية الإسقاطية

27- Idem.

٢٨- ينظر: نادية بوشفرة، المسار السردية في الموروث الحكائي (سردية الحكاية عند غريماس)، رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، قسم الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان ١٩٩٩/٢٠٠٠م. ص: ٤٥.

29- A.J.GREIMAS, Du sens II, Essai sémiotiques, seuil, paris 1983, p : 59.

المستوى السطحي (Le niveau de Surface).

المستوى العميق (Le niveau de profond).

ففي المستوى الأول: سيكون على المحلل رصد مكونين اثنين يُعقدان لنظام العناصر المعروفة بانتمائها إلى هذا المستوى وهما:

(أ). مكون سردي: وفيه يتم ضبط التوالي والترابط الخاص بالحالات والتحويلات، بمعنى مراعاة سلسلة التغيرات الطارئة على حالة الفواعل، وهي بصدد محاولة إنجاز برنامجها السردية وتحقيق اتصالها بموضوع القيمة المرغوب فيه.

(ب). مكون خطابي: وهو يضبط في نص ما الترابط الخاص بالصُّور ومولدات المعنى (Les figures et Les effets du sens)، أي التركيز على استخراج الأنظمة الصورية المنتشرة في نسيج النص.

أما في المستوى الثاني (العميق)، فهناك أيضا تصميمان اثنان يُستخرجان لضبط العناصر المعروفة بانتمائها إلى هذا المستوى وهما:

(أ) شبكة علاقات تُجزُّ تصنيفا لقيم المعنى حسب العلاقات التي تقيمها.

(ب) نسق (نظام) عمليات (d'opération) ينظم الانتقال من قيمة إلى أخرى^(٢٥).

يتم هذا كله بالاستناد إلى نظام الوحدات المعنوية الصغرى (Les sèmes)^(٢٦).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السردية تقتضي-

٢٥- يجدر التذكير هنا أن غريماس إستوحى مستويات نظامه الدراسي هذا من هيلمسليف الذي عمد إلى تقريع كل وحدة من الثنائية السويسرية المعروفة والقائمة على الدال والمدلول إلى وحدتين أخريين، جاعلا مستويات الدراسة أربعة، يختص كل واحد منها بدراسة فرع لغوي معين:

شكل (Forme)، ويضم (التكنولوجيا (أو علم الصوتيات) و التركيب الوظيفي (نحو) Syntaxe المضمون (Substance)، ويضم: علم الأصوات والدلالة.

لمزيد من التفصيل، ينظر: محمد الناصر العجمي، في الخطاب السردية، نظرية غريماس، مرجع سابق، رقم ٤٥ في الهامش، ص: ٢١.
26- J. COURTRES, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Voir : préface d'A. J. Greimas, p : 8.

فلسفة، علم اللغة، رياضيات، فيزياء...) - التي يكتنفها- أي هذه المصطلحات وهذه المفاهيم- الغموض في بعض الأحيان، أو التي لا تتدرج في صلب هذه النظرية بكيفية واضحة. وهو أمر جعل من هذه النظرية -على الرغم من دقتها المصطلحية الواضحة، وعلى الرغم من فاعليتها الإجرائية ومردوديتها التحليلية وبخاصة فيما يتعلق بمواجهتها للنص السردي- عرضة لكثير من الانتقاد والمؤاخذة سواء في النقد الغربي أو العربي مع بعض التفاوت بين ناقد وآخر من حيث التزام الموضوعية وعمق الطرح، وهو ما سنفصل فيه الحديث في المبحثين المكونين لهذه الدراسة.

١. مآزق السيميائيات السردية من منظور النقد الغربي:

١.١ مآخذها: غموض بعض مفاهيمها ومحدودية بعضها الآخر:

لم تكن هذه النظرية - نتيجة للأسباب السابق ذكرها- بمنأى عن النقد والمؤاخذة. فعلى الرغم من انتشارها الواسع وكثرة أتباعها في الشرق والغرب، وشموليتها التي قل نظيرها، وفعاليتها في تحليل النصوص السردية بصفة خاصة، ومحاولاتها المضنية في ضبط قوانين اشتغالها، بل والطموح إلى ضبط قوانين اشتغال كل خطاب بشري مهما كان نوعه^(٣٢)، عبر المراجعة المستمرة والتدقيق والتمحيص الدائمين اللذين كان يقوم بهما صاحبها من حين لآخر كلما دعت الحاجة العملية والمعرفية إلى ذلك^(٣٣)، إلا أنها لم تسلم ك شأن كل عمل بشري، من انتقادات وجَّهها إليها هذا الطرف أو ذلك، ومن سقطات وهفوات أخذها بها هؤلاء، ومن غموض اكتنف بعض مفاهيمها، ومن تناقضات وقعت فيها، ومن إشكاليات بقيت

32- Voir: A.J. GREIMAS, Sémantique structurale, op.cit.p.181.

٣٢- نذكر من هذه التعديلات على سبيل المثال ذلك التعديل المتعلق بالهوية السيميائية الموجودة بين الفاعل البطل وفعله، وسدها بمشروع رؤية جديدة حول نظرية الجهات (Théorie du modalité) ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، مرجع مذكور سابقاً، ص ٧.

القائم على مبدأ الاختيار لعلاقات الوحدات اللغوية.

يتبين لنا من خلال هذا، أن البحث في سردية القصة حسب غريماس ومن والاه، يتم من خلال التركيز على:

المضامين السردية، وتحليل القوانين والضوابط التي تتحكم في الكون السردية^(٣٤). مما يعني أن التحليل سيظل مرتكزاً على البحث عن الشروط الداخلية المتحكمة في الدلالة، مما يستوجب معه أن يظل التحليل محايداً، ذلك لأن الإشكالية التي يحددها العمل السيميائي-ضمن هذا التصور- لا تركز على ما يقوم بين النص وبين المحيل الخارجي من علاقات، بل تركز على البحث في وظيفة النص.

وبناء على هذا، فإنَّ المعنى يُؤخذ على أنه أثر ناتج عن شبكة العلاقات الرابطة بين العناصر الدالة. إذ أنَّ المراد هو "كيف" يُبنى المعنى داخل النص لا خارجه.

وخلاصة القول، إنَّ البحث في سردية القصة من خلال التركيز على:

- دراسة المضامين السردية.

- وضبط القوانين التي تتحكم في الكون السردية- كما أشير إلى ذلك أعلاه- أو بعبارة أخرى من خلال السعي إلى الاهتمام بالشكل السيميوطيقي للمحتوى الذي يعني حسب غريماس، تحليل مستوياتها - (القصة) - المختلفة، بما فيها جميع مظاهر الخطاب، وأبعاده الدلالية العميقة^{٣٥}.

ولعل هذا الطموح الساعي إلى محاولة الإحاطة بالنص - كيفما كان نوعه- من مختلف جوانبه هو الذي جعل هذه النظرية تزدهم بعدد هائل من المصطلحات والمفاهيم المترجمة إلى حقول معرفية متنوعة ومتباعدة أحياناً- (منطق،

٣٠- ينظر: نادية بوشفرة، المسار السردية في الموروث، ص ٤٥.

31- Voir: A.J.GREIMAS, Du sens II, Essai sémiotiques, p : 59

المؤسسة للنص والمتحركة في بنيته السطحية- نال الحظ الأوفر من الانتقاد والمؤاخذة، حيث يذهب «كلود بريمون» (C.BRÉMOND) في هذا الصدد مشككا ومتسائلا إن كان بإمكان هذا المربع أو "المثال التركيبي" كما يدعو- بألفاظه الأربعة في علاقات التضاد والتناقض والتضمين (الاستبعاد)، التي تجمع تلك الألفاظ- أن يُقدم لنا معرفة بما يطرأ داخل الحكاية؟⁽³⁴⁾

بل يذهب "بريمون" بعيدا في تشكيكه في صلاحية هذا المربع ومدى كفاءته ومصدقته، طارحا ضمن ذلك تساؤلات صميمية من قبيل: أين تكمن القيمة الجوهرية التي تحكم المثال التركيبي وتسيره؟ وما هي شروط تطبيقه على السردية؟ وما المنطق الذي يحكم علاقاته في تواليها؟ ليجيب مُعقبا، بأن هذا المربع باعتباره ترسيمة شفافة استمدها غريماس من علماء المنطق الذين يستخدمونها لأغراض وغايات غير تلك التي نجدها عنده، جعلته- كما يضيف بريمون- يقع في هفوات كان بإمكانه تجاوزها.

لقد وقع غريماس - يؤكد بريمون- في مأزق اختيار غير موفق، لا تربطه بالمنطق المؤلف أي صلة، وبخاصة فيما يتعلق بنظام العلاقات في تواليها، كأن يكون «لا ثري» يقتضي «فقير» وليس العكس⁽³⁵⁾. فهذا الانحراف المنهجي، أو الخروج عن المؤلف -بحسب تعبير بريمون- هو الثمن المدفوع لتطبيق حركية المثال التركيبي وعليه سوف يتوقف المصير السردية على أن يكون مقصورا على محور التناقضات⁽³⁶⁾، ليس إلا.

إن غريماس في إسناده السيميائية إلى المنطق في إطار طموحه لصياغة نظريته الخاصة، ثم تنازله فيما بعد عن هذا الطموح ودعوته إلى نقيض ما كان يدعو إليه، من خلال تصريحه بلا جدوى الاختلاف بين المجالين السيميائي

عالقة لم يتم الحسم فيها وتوضيحها بالقدر الكافي. ونعتقد أن هذا هو قدر البحث العلمي، كما هو قدر كل عمل إنساني.

وإذا لم تشمل هذه الانتقادات والمآخذ مفاهيم هذه النظرية وإجراءاتها كلها إلا فيما ندر، إلا أن بعض هذه المفاهيم وهذه الإجراءات لم يسلم من ذلك.

وهذا ما كان من شأن قضايا ومفاهيم مثل: المربع السيميائي (le carré sémiotique)، الذي يعتبره غريماس حصيلة نهائية للتحليل السيميائي، والتشاكل (Isotopie) الضامن لانسجام أجزاء النص في اتساق وحداته وتلاؤمها. بالإضافة إلى بعض الغموض الذي يكتنف مفاهيم مثل: البنيات الزمنية (s. Temporelles) والفضائية (s. spatiaux) وعدم وضوح طرائق اندراجها في صلب النص السردية، وكيفية إسهامها في إنتاج الدلالة أو المعنى، ناهيك عن عدم وضوح ميكانيزمات الانتقال من مستوى إلى آخر في النص ضمن مستوييه المعروفين لدى غريماس (المستوى السطحي) و(المستوى العميق).

وفيما يأتي عرضٌ مفصّلٌ لبعض هذه المآخذ والانتقادات، لنختتم البحث برصد بعض الأحكام التي يُقرُّ فيها أصحابها بقيمة هذه النظرية وبفاعليتها، وبمبلغ تأثيرها في كثير من المهتمين والمتخصصين.

١.١.١.١ المربع السيميائي (le carré sémiotique):

١.١.١.١.١ كلود بريمون: وتناقضات غريماس:

نال المربع السيميائي- باعتباره في المنظور الغريماسي، نموذجا شكليا تكمن وظيفته في استقرار المعنى وتحوله من طور إلى طور، بمعزل عن العالم الخارجي، وتجسيده (المربع) ضمن ذلك لشكل المعنى الذي يُبنى عليه النص في جملته، وقدرته بمقتضى ذلك على ضبط العلاقات المنطقية القائمة بين الوحدات الدلالية الكامنة في عمق النص، وبالتالي وصف الدورة الدلالية له (النص) ضمن اكتشافه لبنية الدلالة العميقة

34- Voir : Claude BREMOND, logique du récit, Col, Poétique.Ed. Seuil, Paris 1973, p93.

35- Ibid. p93.

36- Claude BREMOND , Op. cit.P.93.

يَصِحُّ أَنْ يَتَّخَذَ مُنْطَلَقًا لَوْضَعِ مورفولوجية دينامية. وهذا ما كان قد فعله هذا الأخير، فاستنتج منه عدة علاقات رياضية، مؤكداً في الوقت نفسه دور "التهندس" في وضع المفاهيم وتوليدها^(٤٠).

١.١.١.٣. جاك فانتانيلي: وعدم الكفاية التحليلية للمربع السيميائي:

هذا وفي السياق نفسه، يذهب "جاك فانتانيلي" (Jacques FONTANILLE) في كتاب له بعنوان "السيميائية والأدب (محاولات في المنهج)" (sémiotique et littérature, Essai de méthode) الصادر عام ١٩٩٩، إلى أن دور ركائز النظرية السيميائية الكلاسيكية - ويعني سيميائية غريماس خصوصاً - (المربع السيميائي، والمسار التوليدي، والسردية) في حاجة مأسّة إلى إعادة نظر وتقييم. فالمربع السيميائي مثلاً بالكيفية التي يطرحها به غريماس، لا يستجيب، في نظر "فانتانيلي" لكثير من مقتضيات تحليل الخطاب، وهذا لأنه كما يوضح «لا يمكنه أن يفسر الطريقة التي تتعامل بها الخطابات كلها مع مقولاته الخاصة الداخلية، من تنظيم وإعادة تركيب.

إن إنشاء مربع سيميائي في أثناء تحليل نص أدبي، يعني أننا أمام مقولة ثابتة، يكون تكوينها منتهياً، غير أن البحث عن الكيفية التي تجري بها عملية التلقي من تجميع لمجموع الأشكال، واختيارها وترتيبها من أجل تنظيمها في مقولات تبقى مستعصية، ولا يمكن للتحليل القائم على المربع السيميائي استيعابها، وينبغي البحث عن مناهج أخرى ونماذج جديدة للتحليل تدمج هذه الفرضيات الجديدة^(٤١).

إن هذه الكيفية التحليلية، التي يطرح من خلالها غريماس هذا المربع، والتي تظهر من خلال نص سردي كيفية دخول عنصر في تناقض

والمنطقي، ودعوته إلى عدم الاهتمام بأمر كهذا، يقول بريمون، هو نزوع ينبئ عن الاستهانة بقضايا جوهرية. ويعتقد الباحث نفسه في هذا الصدد، أنه لا يمكننا إحرار أي تقدم في هذا الإطار، ما لم يتم الفصل في هذا النزاع الذي يدعي فيه غريماس إسناد السيميائية إلى قواعد المنطق المقياسي، ثم القول بأنها علم مستقل وقائم بذاته^(٣٧).

ويختتم «بريمون» سلسلة انتقاداته - في إطار اجتهاداته لتحقيق كفاية علمية لـ «منطق الحكيم» - قائلاً: إن هذا المثال التركيبي الذي يبقى انتخابه واقعا محتملا على غرار شبكة المشاريع المقدمة في هذا الشأن - والذي منحه غريماس - لكن بأي حق؟ - ميزة الحكم على عالم الحكاية... كان بإمكانه (المثال التركيبي) توفير فضاء واسع لسلسلة من الخيارات الممنوحة، إلا أننا نلغيه بعيداً عن استعماله الحقيقي ومُسنداً إليه عملاً لا قبل له به^(٣٨).

١.١.١.٢. بتيتو: واختزالية المربع السيميائي:

وفي سياق هذا الجدل نفسه الذي أثاره المربع السيميائي وما يتعلق بمنطق تنظيم الدلالة فيه، نجد أحد المختصين في المنطق وهو «بتيتو» (PETITO) يشكك ضمن دراسة له بعنوان "المربع السيميائي وشكلنة البنية" (le carré sémiotique et shematisme de la structure) في سلامة هذا المربع، واضعاً إياه موضع تساؤل من منطلق أنه يُسَطُّ النظام الدلالي ويختزل أبعاده، ولا يراعي في ذلك الحالات المركبة التي يمكن أن تدمج بين المتناقضات، مقترحاً - لتجاوز هذا القصور الذي يراه - تعديله بجعله شكلاً ذا ثمانية أضلاع^(٣٩).

فغريماس في تقديمه لمربعه السيميائي على أنه عملية عيانية (Visualisation) تساعد القارئ على الفهم، وقصره على هذه الوظيفة فقط، يُفقره - يقول بتيتو (PETITO) - لذلك يجب، بغية سد هذا الافتقار كما يضيف، اعتباره شكلاً هندسياً

٤٠- ينظر محمد مفتاح، دينامية النص (تظهير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٤، ط١، ص ٣٩.

41- Jacques FONTANILLE, Sémiotique et littérature, Essai de méthode, P.U.F., Paris, 1999, P.45

37- Ibid, p.9

38- Claude BREMOND, Op. cit. P.99

39- PETITOT: "Carré sémiotique et schématisation de la structure", Bulletin C.R.S.L.

(Paris) التي يتزعمها غريماس، نجده يعمم هذا المفهوم- التشاكل- ليشمل التعبير والمضمون معا، ليصبح وفقا لذلك متنوعا تنوعا مكونات الخطاب، من تشاكل صوتي، ومعنوي، ومنطقي، ونبري وإيقاعي، وهلم جرا ... مقترحا ضمن ذلك تعديل تعريف غريماس المعروف* الذي يجده ضيقا، حيث يقول في هذا الصدد، إن التشاكل هو "نواة تركيبية (Iterative) لوحدة ألسنية (ظاهرة أو غير ظاهرة) منتمة إما إلى التعبير، وإما إلى المضمون، أو هو بوجه عام تكرار لوحدة ألسنية"^(٤٦).

إن تركيز غريماس في قراءته التشاكية، على الكتابة الأسطورية بخاصة والنص السري بعامة، هو الذي جعله لا يلتفت إلى ما يمكن أن تتضمنه الخطابات الأخرى من تشاكلات تعبيرية متنوعة فضلا عن المضمونية، وخصوصا الخطاب الشعري، وهو الميدان الذي كان قد خاض فيه "راستي" (F.RASTIER). ولذلك فعلى الرغم مما بين الباحثين من عناصر مشتركة وتقاطعات في كون التشاكل لا يحصل إلا من تعدد الوحدات اللغوية المختلفة، وفي أنه لا ينتج إلا انطلاقا من "التباين" (Allotopie)- كمفهوم إجرائي معاكس- وأن هذين المفهومين- التشاكل والتباين- لا يمكن بمقتضى ذلك فصل أحدهما عن الآخر، لكون وجود أحدهما مرهونا بوجود الآخر، وأن التشاكل هو الذي يحصل به الفهم الموحد للنص المقروء، وأنه هو الضامن لانسجام أجزائه وارتباط أقواله، مما يبعده عن الإبهام الذي يمكن أن يرتبط ببعض النصوص التي تحتل قراءات متعددة، وأنه يتولد عنه تراكم تعبيرية ومضمونية تحتمه طبيعة اللغة والكلام^(٤٧)، إلا أن هناك أنواعا من الاختلافات الموجودة بينهما. فما توفره رحابة الخطاب الشعري- الذي ركز عليه راستي- في تنوع عناصره

مع عناصر أخرى، لا تكشف لنا- في نظر فانتاني- عن العلاقة التي تميز العنصرين المتناقضين، كما أنها لا تحدد لنا وضعية هذا العنصر داخل مقولة العناصر الطبيعية، أي ما يفسر ويجلي العلاقات داخل الثقافة الطبيعية للمجتمع^(٤٢).

فهذه الكيفية التحليلية التي تعتبر الخطاب ملفوظا، أي تعتبر المعنى منتهايا وفي الإمكان إعادة بنائه اعتمادا على الميكانيزمات المهيمنة فيه، واستنادا إلى مقولات المربع السيميائي المعروفة (التناقض، التضاد، التضامن)، والداعية بمقتضى ذلك إلى تفعيل الخطاب - من خلال الاهتمام بالطرائق التي يشتغل وفقها في إنتاج تشكيلاته الخاصة، وكذا كيفية انبناء جزئيات المضمون فيه، وكيفية إقامة العلاقات التي تمكن من التعرف على التوالج الدلالي فيه- يجدها فانتاني غير قادرة على الرغم من كل هذا- وفق الكيفية الأنفة الذكر التي يطرحها بها المربع الغريماسي- على ضبط ميكانيزمات تشكل المقولة انطلاقا من التلقي^(٤٣).

١.٢. التشاكل (Isotopie):

١.٢.١. فرانسوا راستي: وإهمال تشاكل غريماس للمستوى التعبيري:

لقي التشاكل باعتباره مفهوما إجرائيا لجأ إليه غريماس لتأكيد انسجام الخطاب، أو إيضاحه وإن كان مبهما، أو تشييد موضوعاته ورسائله العامة والخاصة، مقتصرا إياه على المضمون دون التعبير^{٤٤}، توسيعات من قبل بعض أتباعه قبل أن يلقي اعتراضات وانتقادات من قبل غرمائه. فهذا "فرانسوا راستي" (F.RASTIER)^{٤٥}، وهو أحد أعمدة "مدرسة باريس" (L'Ecole de

٤٢- ينظر عبدالقادر شرشار، مستويات التحليل السيميائي في مقاربة النص السري، مجلة بحوث سيميائية، يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة تلمسان، دار الغرب للنشر والتوزيع، ع، ١٦، سبتمبر ٢٠٠٢، ص ١٢٨.

43- Voir: Jacques FONTANILLE. Op. Cit. p 4

٤٤- ينظر: محمد مفتاح: بعض خصائص الخطاب، مجلة علامات، مرجع مذکور سابقا، ص ١١.

45- A. J. GREIMAS, J. COURTES, Dictionnaire raisonné... op.cit.p.p. 197, 199

46- Voir: François RASTIER: "Systématique des isotopies" in sémiotique poétique, Larousse, Paris, 1972, p.80.

47- F. RASTIER, " Systématique des isotopies" in op.cit.p.82.

وأهمل القاعدة التركيبية المنطقية^(٥٠).

١.٢.٣. "جوتان كلر: تشاكل غريماس تطبعه العشوائية وعدم وضوح المعايير المستند إليها في استنباطه:

هذا ويذهب الباحث "جوتان كلر" (J.CULLER) نفس المذهب، منتقدا ليس التعريف الذي يضعه غريماس لمفهوم التشاكل، بل متسائلا عن الطريقة التي يمكننا من خلالها استنباط هذه التشاكلات والنظائر في نص معطى، وعن مصداقية القواعد العلمية التي يمكن الاستناد إليها في تحليل تشاكلي كذاك الذي ذهب إليه غريماس في دراسته لعالم برنانوس (L'Univers de Bernanos)^(٥١)، والذي اكتشف أنه قائم على تشاكلات ممثلة في "الحياة، الموت، الفرح" والتي تقع في تضاد مع "الموت الماء، الضجر". هل الطريقة التي اتبعها غريماس في مسعاه هذا والقواعد التي استند إليها في تحليله، علمية وموضوعية، أم عشوائية وذاتية وانطباعية؟ كيف استطاع غريماس استخراج الأوصاف التي ينسبها إلى الحياة- يقول كلر- بينما يتردد هذا اللفظ في أكثر من موضع في نصوص «برنانوس» للتعبير المجازي أو للدلالة الرمزية؟ ليضيف متسائلا أيضا بحيرة: كيف نستطيع إتباع إجراءات غريماس ونحن نجهل قواعد استعمالها وتطبيقها ميدانيا في التحليل^(٥٢)؟ هل الطريقة العشوائية في اختيار التشاكلات والنظائر في نص ما يمكن أن تكون أسلوبا علميا ينبغي الاعتماد عليه؟ ليختتم مستدركا ومعقبا، أن عملية استخراج التشاكلات من النصوص بطريقة موضوعية، ليس بالأمر الهين، على الرغم من إقرار غريماس بأن لكل نص معنى عاما يقوم عليه، وما على الباحث سوى إدراكه من خلال جملة العبارات الحاملة

التعبيرية وبخاصة الصوتية والنبرية والإيقاعية والتركيبية من تعادلات وتوازنات، لا يمكن أن توفره الكتابة الأسطورية- التي ركز عليها غريماس- في ثبات عناصرها ونمطيتها ومحدوديتها، ولذلك فميدان اختيار «راستي» هو الذي جعله يتنبه إلى عناصر كان قد أغفلها غريماس سواء أفي تعريفاته النظرية أم في تطبيقاته نتيجة اختياره كذلك.

١.٢.٢. "جماعة أم" تشاكل غريماس يهمل القاعدة التركيبية المنطقية للخطاب:

وهذا التوسيع نفسه تبنته "جماعة أم" (Groupe M)، في كتاب لها بعنوان "بلاغة الشعر" ١٩٩٧ " (la Rhétorique de la poésie)، مقترحة بدورها تعريفا للتشاكل يخالف تعريف غريماس، مفاده أنه "تكرار لنفس البنيات التركيبية (عميقة أو سطحية) على مدى امتداد قول"^(٥٨) ما. إن التشاكل بحسب هذا التحديد، لا يمكن أن يخلو منه خطاب مهما كانت طبيعته، سواء أكان علميا أم فلسفيا أم سياسيا... بالإضافة إلى تشاكل تعبيري إضافي ناتج عن طبيعة بنية الشعر، يتجلى بصفة خاصة في الإيقاع والوزن والنبر، وتكرار الأصوات بأنواعه المختلفة^(٥٩).

لقد كان هذا التعريف الموسع الذي صاغته "جماعة أم" (Groupe M) لمفهوم التشاكل، مدخلا أساسيا للولوج من خلاله إلى انتقاد تحديد غريماس له، من حيث كونه أبعد عن جوهرها في الخطاب وهو التعبير، "كما أنه أخذ في الاعتبار الشرط الإيجابي في تعريفه للتراكيم المعنوي، ولكنه لم يعر الانتباه إلى الشرط السلبي، لأن العلاقات التركيبية لا تستطيع أن تضع مقومات (سمات) متعارضة في علاقة تجديدية (كالمساواة والحمل). ومعنى هذا "أن غريماس" راعى القاعدة المعنوية

٥٠- ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، (استراتيجية

التناص)، مرجع سابق، ص ٢٢.

٥١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

52- Voir: A.J. GREIMAS, Univers de Bernanos, in sémantique structurale, op.cit. p.p. 225.256

٤٨- ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، مرجع سابق،

ص ٢١.

49- Groupe M, la Rhétorique de la poésie, P.U.F, Paris, 1997, p.82

أية تلك الدراسات التي اتخذت الجملة موضوعاً لها أم في تلك التي اتخذت النص كاملاً، وسواء أتلك التي اعتمدت على الفعل مباشرة، أم تلك التي اعتمدت عليه بشكل غير مباشر عن طريق مجموعة من التحويلات السردية^(٥٦)، من حيث كونها تحتوي على عدد من الأماكن العاملية التي تكوّن ما أسماه "تتير" و"فيلمور" "الخشبة" (la scène)، ومكّن بالتالي- هذا المبدأ التفسيري- الباحثين من اختزال نصّ طويل إلى نص قصير جداً.

لقد مكن هذا الاختزال من التفكير في «نحو سردي للنصوص»، من حيث كونه وفر تبريراً لنوع من المعادلة بين البنية السردية البسيطة كالجمله، وتلك التي تبدو أكثر تعقيداً كالقصة، والحكاية الشعبية أو الرواية، وأصبح بالإمكان انطلاقاً، منه تشكيل مبدإ يقوم على مفاهيم سرديّة لكل خطاب، اعتماداً على المعارف المكتسبة في تحليل الجملة^(٥٧)، والذي يمكن تلخيصه- المبدأ- ضمن قاعدة تجريبية مفادها أن المعنى لا يدرك «إلا من خلال التحويلات»^(٥٨)، كما يؤكد فانتاني.

٣.١.١. جاك فانتاني: سيميائية التلقي وتجاوزها لسردية غريماس:

إن هذا الإجراء على الرغم من الفعالية التي أثبتتها والخدمات التي مدّها بها محليّ النصوص على اختلاف إستراتيجياتهم، إلا أنه في نظر «ج. فانتاني» (J.FONTANILLE) لم يعد كافياً في تصور أفاق مستويات تحليل الخطاب. فبعد أن كشفت التحليلات السردية، أن الذي يمكن إمساكه هو التحويل الفعلي من حالة ثابتة إلى حالة أخرى جديدة عبر صيرورة البرامج السردية التي يخضع لها البناء السردية للخطاب، تُعقد هذا الإجراء، ولم يعد بإمكان التحليل أن يطال الدلالة الفاعلة التي تتشكل فور القراءة، وإنما الثابتة المستقرة بعد

له، والمتضمنة لسيمات سياقية تتواتر وتتراكم عبر كامل نسيج النص، بإمكانها إرشاده- الباحث- إلى ضبط التشاكلات واستنباطها وإبرازها^(٥٩)، وهذا يعتمد بالدرجة الأولى على ذوق الباحث وعلى كفاءته، وعلى حصافته وخبرته وسعة معرفته، أكثر مما يعتمد على قواعد علمية صارمة وواضحة.

١.٣. السردية (la narrativité) والمسار التوليدي (génératif le parcours):

لم يقتصر أمر انتقاد بعض المفاهيم الإجرائية لنظرية غريماس على ما سبق ذكره فقط- المربع السيميائي والتشاكل- بل تعداه ليشمل مفاهيم أخرى ومنها «السردية» (la narrativité)، فعلى الرغم من أنها خاصية تشمل- في نظر غريماس- كل ضروب السلوك والتصرف، وأنها دعامة الخطاب^(٥٩)، لكونها مُمثّلت مبدأ تنظيمياً مركزياً في التحليل البنائي في الستينات والسبعينات لأسباب تاريخية، وأخرى علمية، من حيث كونها وفرت جهازاً مفاهيمياً لكل الدوال التي كانت في حجم الجملة، أو أكبر من الجملة (النص)^(٥٥)، إلا أنها لم تسلم- حسب الفهم الذي طرحه بها غريماس- من انتقادات وُجّهت إليها، وقصورٍ لوحظ فيها.

تقوم السردية على مفاهيم معروفة منها مفهوم «العامل» الذي اختلف الباحثون كثيراً في تحديد طبيعته وتسميته كل حسب إستراتيجيته وميدان بحثه، فكان عند «سوريو» (SOURIAU) حالة دلالية، وعند "فيلمور" (FILLMORE) دوراً درامياً، وعند "تتير" (TESNIERE) عاملاً نحوياً، وعند "غريماس" (GREIMAS) عاملاً سردياً. ولقد أثبت هذا المفهوم فعاليته التحليلية والتعديدية سواء

٥٢- ينظر نادية بوشفرة، المسار السردية في الموروث الحكائي،

مرجع مذكور سابقاً، ص ١٧٠- ١٧١

54- J. CULLER, Structuraliste poetics, Rout ledge and Keg an Paul, 1975.

٥٥- ينظر: محمد مفتاح، بعض خصائص الخطاب، مجلة علامات، ج٢٥، ص ٩، ص ١١.

٥٦- ينظر: عبدالقادر شرشار، مستويات التحليل السيميائي في مقاربة النص السردية، مجلة بحوث سيميائية، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٤٠.

٥٧- ينظر: المرجع نفسه، ص ١٤١.

٥٨- ينظر: المرجع السابق، ص ١٤١.

١.٤). البنية العاملية (Structure actantielle):

١.٤.١. آن أوبرسفالدي: ترسيمة غريماس
لقيت البنية العاملية كما صاغها غريماس
بتأثير من بروب وتير، والتي احتفظ فيها بستة
عوامل رآها تُظَمُّ العوالم والأفكار والقيم بصفة
عامة، مُمَيِّزًا في خضم ذلك بين عوامل البلاغ
(الساد والمسرود له) وبين عوامل السرد أو
الملفوظ (الذات/الموضوع، المرسل/المُرسل إليه)،
مقيما من خلال ذلك مقابلة من منظور نحوي،
بين العوامل التركيبية المسجَّلة في برنامج سردي
معين، مثل ذات الحالة وذات الفعل، وبين العوامل
الوظيفية التي تؤدي أدوارا عاملية في المسار
السردى، والمجسَّد في الشكل الآتي:

مُرسل ← موضوع ← مرسَل إليه
مساند ← ذات ← معارض

لَقِيَتْ انتقادات وتعديلات من قِبَلِ
الباحثة المسرحية "آن أوبرسفالدي" (Anne
UBERSFELD)، حيث ذهبت إلى القول إن هذه
الترسيمة العاملية غير مُقْنَعَةٍ من حيث مقروئيتها
، لكونها- كما ترى- تتطوي على خلل في مَوْقَعَةِ
العوامل في خاناتها الحقيقية، فثمة جملة مفتاحية
لقراءة الشكل: المرسل يطلب من الذات تحقيق
موضوع لفائدة مرسَل إليه، وهذا يعني أن
السهم يجب أن يمر من المرسل إلى الذات ثم إلى
الموضوع- لا من المرسل إلى الموضوع كما يجسده
الطرح الغريماسي- فالمرسل لا يمكن أن يطلب
شيئا من الموضوع لكونه مسعَى وليس ذاتا، وعليه
يصبح من المتعذر قراءة الترسيمة على ذلك النحو
الذي صاغه بها غريماس^(٦٢).

أما الخلل الثاني الذي تتطوي عليه هذه
الترسيمة الغريماسية في نظر آن أوبرسفالدي،
فيتمثل «في إمكانية وجود مساندة أو معارضة
للموضوع وليس للذات، أي احتمال انزلاق السهام

التحويلات الناتجة عن البرامج السردية في أثناء
تتالي الحالات والتحويلات، ولذلك تبقى مقولة
"السردية" غير كافية في تصور آفاق مستويات
تحليل الخطاب في منظور سيميائية التلقي^(٦٠) التي
يتبناها فانتانيي.

٣.١.٢. جاك فانتانيي: المسار التوليدي لغريماس عاجز عن الكشف عن الكيفية التي يتم بها التلفيظ، وعن تلك التي يتم بها الاختيار والتنظيم:

أما المسار التوليدي باعتباره ترسيمة موجَّهة-
كما يؤكد المعجم^(٦١)- يرتبط بكل الأنظمة الدلالية
الفعلية وغير الفعلية، والتي تتيح- الترسيمة-
للمحلل في أثناء تتبعه للمسار من البداية إلى
النهاية الانتقال بطريقة متتالية من الصعيد
الأكثر بساطة والمسمى (قصصي) إلى الصعيد
الأكثر تعقيدا والمسمى (خطابي) أو باعتباره-
بعبارة أخرى- نموذجا لترتيب المقولات في خطاب
ما، ابتداء من تلك المقولات المجردة (البنيات
الأولية) وانتهاء بالمحسوسة (البنيات المشخصة
للخطاب)، والذي من شأنه- بفضل تحويليته،
وبخاصة التحويل المضمَّن فيه- تمكين الدارس
من التعرف إلى وضعية مجموع البنيات الممكنة
في أثناء عملية التلفيظ، فإنه- المسار- في شكله
التصاعدي والتنازلي لا يكشف في نظر فانتانيي"
(FONTANILLE) عن الكيفية التي يجري
بها التلفيظ، ولا عن الكيفية يتم بها الاختيار
والتنظيم، والامتزاج بين الوحدات من أجل
إبداع مقولته، ولذلك، ومن أجل الوصول إلى هذا
الكشف- يؤكد فانتانيي- ينبغي التفكير في وسائل
وأدوات إجرائية أخرى^(٦١).

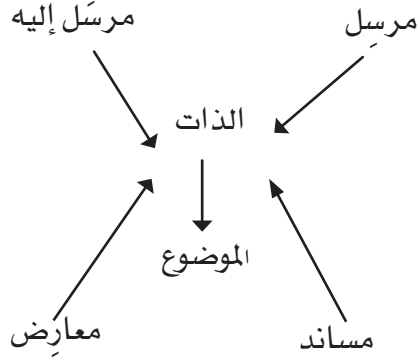
59- Jacque FONTANILLE, sémiotique et littérature, Op.Cit. p.p.7-8.

٦٠- ينظر: عبدالقادر شرشار، مستويات التحليل السيميائي في مقارنة النص السردى، مرجع سابق، ص ١٤١.

61- A. J. GREIMAS, J.COURTES, Dictionnaire raisonné, 1979.

٦٢- ينظر: عبد القادر شرشار، المرجع المذكور سابقا، ١٤٠.

تسعى إلى تحقيق وصلة بموضوع القيمة، وليس إلى الموضوع كمبتغى، وعليه يمكن أن يُسفر تعديل ترسيمة الباحثة بناء على هذه الملاحظات، عن الشكل الآتي:



١.٥. اشكالية تصنيف الشخصية

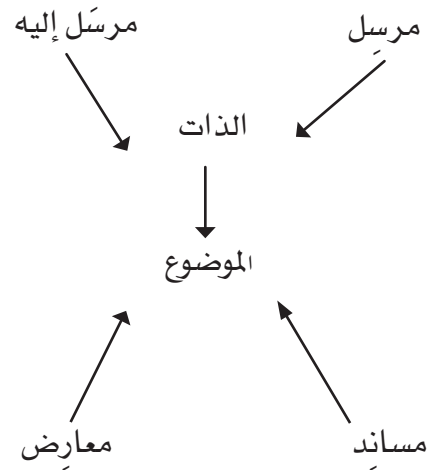
(Personnage):

بارت: وغموض معايير تصنيف الشخصية لدى غريماس:

يذهب «ر.بارت» (R.BARTHES) في مقاله الشهير "التحليل البنيوي للمحكي" إلى أن المشاكل التي يطرحها مفهوم "الشخصية" على التحليل البنيوي للقصة، منذ بروب إلى يومنا هذا مازالت تطرح نفسها بقوة. فعلى الرغم من اتفاق جل الباحثين "حول كون العديد من شخصيات القصة يمكن أن تكون خاضعة لقواعد الإبدال، ويمكن أن تندمج في صورة واحدة، حتى داخل الأثر القصصي نفسه، مع صور شخصيات مختلفة"^(٦٥)، وعلى الرغم من تلك المحاولات الحثيثة التي أتاها هؤلاء للتغلب على هذه العقبة إلا أن المشكل ما يزال قائماً.

فالنموذج الفاعلي (actantiel) مثلاً الذي اقترحه غريماس، باعتباره نموذجاً بنيوياً "يساوي بشكله المقبول (جداول من ستة فواعل) أقل مما

المتجهة نحو الذات التي قد تغدو شكلاً أجوف لا قيمة له من دون موضوع يشحنها دلالياً وقيماً، ومع ذلك - تؤكد الباحثة - لا يمكن إغفال وجود حالات كثيرة تكون فيها المساندة أو المعارضة للذات كوجود. وللتدليل على ذلك - تضيف - يمكن دراسة العصبية وممارسته الجماعات الرعوية. ولترميم ما رأته خلافاً، تقترح الباحثة ترسيمة مغايرة قليلاً لترسيمة غريماس، لتبرير المفروئية، والمجسدة في هذا الشكل^(٦٦):



يتبين جيداً لقارئ هذه الترسمة أن سهم الرغبة غير مجراه وأصبح يُوصَل المرسل بالذات التي تسعى إلى تجسيد موضوع فرضي، وقد بينت الباحثة بالحجة، انطلاقاً من دراسات ونماذج ركزت على المسرح الإغريقي، أن هذا البديل بإمكانه أن يحل محل ترسيمة غريماس^(٦٤) السالفة الذكر.

غير أننا نشير إلى أن هذه الترسمة التي تأتيتها الباحثة هنا كبديل لترسيمة غريماس، لا يمكن أن تستقيم - واقعياً - ذلك لأن المساندة أو المعارضة، تكون موجهة، إلى (الذات) التي

٦٥- ينظر: سعيد بوطاجين، الاشتغال العملي، دراسة سيميائية، "غداً يوم جديد" لابن هدوقة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٤.

63- Voir : A.UBERSFELD; Lire le théâtre, éd, Sociales, Paris 1982 (Chapitre : Les personnages dans le théâtre)

64. Idem

١٠٦). المعجم المعقلن لنظرية الكلام: بيتر دوميجر: المعجم المعقلن لنظرية الكلام مغلق على نفسه وصعب الاستعمال: إن مؤلف "السيمائية": المعجم المعقلن لنظرية الكلام *Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la* الكلام (théorie du langage) الذي أصدره غريماس رفقة جوزيف كورتيس (J.COURTÉS) سنة ١٩٧٩، والذي يري بشأنه "جان كلود كوكي" (J.C.COQUET) أنه مؤلف ليس له مثل في مجال السيميائية، لكونه يسلط الأضواء على نحو لافت للنظر - من خلال تبيينه لتقديم استبدالي لـ (٦٤٥ مادة) - على درجة تقدم النظرية ومجال التطبيق الذي يدعمها. من حيث كونه يقترح «تفكيراً في المفاهيم» الضرورية لتحليل "الكلام"، الذي يعني أي تمفصل لعالم دلالي يشكل "مجموعة دالة" (٧٠)، والذي يقول فيه «ميشال آريفي» بهذا المؤلف الضخم تكون السيميائية قد انضردت بأداة عمل لا مثل لها^{٧١}. يذهب بشأنه الباحث «بيتر دوميجر» (Pieter de MEIJAR) - منتقداً بعض الصعوبات والتعقيدات التي ينطوي عليها قائلاً: إن هذا الكتاب الذي تسيطر عليه مسلمة "التسليم بقواعد" أكثر شمولية تحلل اللغات والرواية معا^(٧٢)، لا يخلو من صعوبة وتعقيد، فكثيراً من المفاهيم المحددة فيه بشكل واضح، مثل "الحدث" و"السياق" و"الفعل" و"التصرف"، فضلاً عن أنها لن تحظى بسهولة بموافقة جميع الباحثين، أي أنها أبعد من أن تلقى تعريفات متوائمة (Univoques)، فإن "نظام الإحالات الداخلية المتبع في المعجم مغلق تماماً على نفسه، مما يصعب اعتماد إحدى العبارات دون اعتماد النظام الغريماسي كله في الوقت نفسه"^(٧٣).

٧٠- المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

٧١- جان كلود كوكي، السيرة الذاتية والعلمية لـ أ.ج. غريماس، تر/ رشيد بن مالك، في كتاب «البنية السردية في النظرية السيميائية»، دار الحكمة، الجزائر ٢٠٠٠، ص ٩٧

٧٢- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٣- بيتر دوميجر، تحليل الرواية، تر/ غسان شديد، مجلة العرب والفكر العالمي، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٠٥.

يساوي بتحولاته المنتظمة (الحذف، الالتباس، المضاعفة، الإبدال) التي تتلاءم معها، فاسحا بهذا إمكانية الوصول إلى نمذجة فاعليه في القصص^(٦١) - والذي تناوله كل من بريمون وتودوروف من خلال منظور مختلف، حيث يجزئه الأول ويختزله الثاني - على الرغم من صمود اختباراتهما أمام عدد كبير من القصص، إلا أنه وبخاصة "عندما يكون لجدول التوزيع قوة التصنيف (هذه هي حالة الفواعل لدى غريماس) فإنه يسيء تقدير تعدد أسماء الفاعل والمفعول^(٦٧)، ذلك أن «الصعوبة الفعلية التي يطرحها تصنيف الشخصيات هو موقع (ووجود) الفاعل في كل جدول توزيع فاعلي، مهما كانت صيغته. من هو فاعل (بطل) القصة؟ هل هناك فئة محظوظة من الممثلين الفاعلين؟ لقد عودتنا قصصنا المكتوبة أن نحرك، بطريقة أو بأخرى وأحياناً بطريقة ملتوية (سلبية) شخصية من بين شخصيات أخرى. لكن الامتياز يبقى بعيداً عن تغطية مجمل الأدب السردية"^(٦٨).

ولتجاوز هذا الإشكال يقترح بارت، ضرورة الاقتراب مرة أخرى من الألسنية، حتى نستطيع أن نصف مرتبة الشخصين ونصنفهما: المتكلم والمخاطب (أنا/أنت)، وشخص الغائب (هو)، في صيغة المفرد والثنى والجمع، أي شخص العمل. هذه - لربما - الفئات النحوية للشخص التي ستفتح الطريق أمام مستوى العمل. لكن بما أن هذه الفئات لا يمكن أن تتحدد إلا بالنسبة إلى مرتبة الخطاب وليس بالنسبة إلى مرتبة الواقع، لا تجد الشخصيات، كونها وحدات مستوى العمل معناها (معقوليتها) إلا إذا جعلناها تتداخل في المستوى الثالث، مستوى الوصف، الذي نسميه مستوى السرد في (مقابل مستوى الوظائف والأعمال)^(٦٩).

٦٦- رولان بارت، التحليل البنيوي للقصص، تر/ نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، ع ٥٤، شتاء ١٩٨٩، ص ٣١.

٦٧- المرجع نفسه، ص ٢٢.

٦٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٦٩- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إن هذا الألسني، المقارن الكبير- بنفينست- يذكر- كما يؤكد كوكي " - بأهمية ثابتات الكلام التي همشتها أو استبعدتها، خلال الحقبة السابقة، السيميائية الغريماشية على وجه الخصوص. ويتمثل هذا التحول الذي أصبح أساسيا، في تبني "بنفنست" لما أسماه "الحقل الوضعياتي للفاعل". كان ينبغي إذن- والحال هذه- إدراج مفهوم الاطراد ضمن ثابتات الفاعل والفضاء والزمن دون الاقتصار على التقطع^(٧٧)، كما كان ينبغي بالإضافة إلى هذا أن نقيم- انطلاقا من مقياس المسافة- وضعيات الموضوع التي تبدو أحيانا غير مدركة ك (الاقتراب، الانتشار، الابتعاد،...)، وفي مقابل ذلك كان يجب أيضا أن تؤخذ بعين الاعتبار العوامل في صيروتها دون الاكتفاء بذلك التحويل البسيط والميكانيكي للحالات، كما كان ينبغي كذلك- في هذا الإطار- أن يتم التأكيد على ذلك الترابط المتبادل بين الواقع والصدق، دون الاقتصار على مفاهيم الوهم "المرجعي" و"التصديق" المثبتة في المعجم^(٧٨).

بالإضافة إلى هذا، كان ينبغي- كما يضيف كوكي- أن يتم تحويل الترسمة العالمية لتتلاءم ومتطلبات التلفظ، ليرد- وفق هذا المنظور- كل خطاب إلى آلياته المتلفظة، والتي يمكن ذكر ثلاث منها وهي: المرسل، والفاعل واللافاعل، حيث تتحدد كل آنية من هذه الآليات- كما يقول- من خلال بنيتها الكيفية. وبناء على هذا، فعلى الرغم من أن مجال شرعية سيميائية الجيل الأول- غريماش ومجاليه- يبدو بارز المعالم، إلا أنه ضيق إلى أبعد حد- كما يؤكد كوكي- وذلك لأنه لم يغط الظواهر الكلامية التي تبناها «بنفنست» والتي تسعى سيميائية الجيل الثاني اليوم إلى توضيحها وحل إشكالاتها^(٧٩).

إن سيميائية غريماش- الجيل الأول- أصبحت متجاوزة إذن والحال هذه، وذلك لأنه إذا كان الباحث قد تعود على تحليل «الملفوظ» مع هذه

١٠٧). انتقاد النظرية كلها ومحاولات تجاوزها:

جان كلود كوكي: سيميائية التلفظ وتجاوزها لسيميائية غريماش الميكانيكية:

يقدم «جان كلود كوكي» (J.C.COQUET) في بحثه الشهير "السيميائية مدرسة باريس (SEMIOTIQUE: L'ECOLE DE PARIS)^(٧٤) -وعلى الرغم من كونه أحد المنتمين إلى هذه المدرسة والمتبنين لنهجها- نقدا ذاتيا لا يخلو من وجاهة. حيث يشير في هذا الصدد إلى أن مدرسة باريس الحديثة العهد يقصد ما بعد غريماش- تحتاج- لمواكبة التطور الحاصل في مجال المعرفة الإنسانية بعامة والسيميائية بخاصة- إلى باحثين يعرفون كيف يتجنبون الآلية الفكرية ويجددون^(٧٥). فقد أن الأوان- كما يضيف- لأن نضع إنجازات هذه المدرسة موضع تساؤل، فالمغامرة العلمية التي أرسى دعائمها شخص واحد- يقصد غريماش- لا يمكن إلا أن تتجاوزها مع تطور الزمن وتقدم المعرفة، فالمسلمات التي تبناها «غريماش» في سيميائته الموضوعاتية والمستمدة من بنوية الستينات السكونية، والتي تبنتها مدرسة باريس فيما بعد، وكانت ملزمة بمتابعة أبحاثها، قد تجاوزها الزمن في نظر «كوكي»، ولا أدل على هذا- كما يؤكد- من ذلك التحول اليبستيمولوجي الذي حدث في السبعينات مع ظهور أعمال "أميل بنفينست" (E.BENVINISTE) حول التلفظ^(٧٦).

ولكن ما ينبغي الإشارة إليه هنا وربما يكون (كوكي) قد أغفله، هو أن غريماش أدرج مسألة "التلفظ" في أثناء تمييزه بين عوامل "السردي" وعوامل "التبليغ"، وفي نفس الإطار توسع فيها ج.كورتيس بعد التسعينات استنادا إلى البعد التداولي.

٧٤- المرجع نفسه، ص ١٠٧.

75- J. C. COQUET, «La sémiotique l'école de Paris». Hachette Université, Paris, 1982.

٧٦- لمزيد من التفصيل ينظر: جان كلود كوكي، السيميائية: مدرسة باريس، تر/ رشيد بن مالك، مجلة تجليات الحداثة، مرجع سابق، ص.ص ٢١٢، ٢٢٨.

٧٧- ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٢٤.

٧٨- ينظر: المرجع السابق، ص ٢٢٢.

٧٩- ينظر: المرجع السابق نفسه، ص ٢٢٢، ٢٢٤.

الأخيرة، فإنه الآن تواجهه إشكاليةٌ تفقدُ فيها مفاهيم «المربع السيميائي» و«المسار التوليدي مكانتها»^(٨٠). إن التصورات الراهنة لمدرسة باريس كما يوضح كوكي- تختلف اختلافا جذريا عما كانت عليه بالأمس، فهي على الرغم من كونها لا تزعم أنها ستتشكل إلى نظرية شكلية لكل الكلم- على نحو ما كان غريماس يريد تأكيده أو بالأحرى الوصول إليه- إلا أنها "في بنائها للنماذج المفهوماتية لا تتخلى عن رغبتها في أن تعتبر كمييار على نحو ما كان يُطالبُ بذلكه هيلمسلف (HJELMSLEV) وإلا وعلى أقل تقدير كمرجع لعلوم الإنسان"^(٨١).

انطلاقاً من هذا، فإن الحاجة تُصبحُ جدُّ ماسة- في نظر كوكي- إلى بروز دارسينِ جدُّ يعرفون كيف يتجاوزون الآلية أو النمطية الفكرية، ويتكيفون مع ظروف العصر وثقافته المتطورة دوماً، عبر التجديد والاجتهاد المتواصلين، وذلك لأن كل مجتمع، وكل ثقافة، وكل نص يثير أسئلةً تثري الإجابة عنها النظرية، وتسهم في تغييرها بعمق، بل وفي رفضها^(٨٢) إن اقتضت الضرورة المعرفية ذلك.

النصوص السردية القصيرة- القصة القصيرة- فإن الرواية تستعصي عليها. ناهيك عن صعوبة تمثيلها وعُسر استيعابها من قِبَل كثير من المتلقين. إن هذه الانتقادات وإن كانت تتميز ببعض الوجاهة فيما ذهبت إليه، فأصابت كبد الحقيقة، فإن بعضها الآخر جانب الصواب، وبالغ في مسعاه حينما لم يُقدّر الجهد الذي بذله صاحبها في تأسيسها والإضافات التي حققها، ولم يراع طبيعة النظرية ولا الفتوحات المنهجية التي قدمتها في سبيل تيسير البحث في مجالها. ولعل أبلغ ردٍ يمكن أن يُوجّه إلى هؤلاء، هو ما يجترحه غريماس نفسه، موضحاً طبيعة دراسته ومبيّناً حدودها وأبعادها، حينما يلهج قائلاً، بأن تفسير عمله- يقصد دراسته لموباسان MAUPASSANT- جدُّ بسيط، إذ يكفي القول في هذه اللحظة، بأن الأدوات المنهجية التي أصبحت تتوافر عليها السيميائية الخطائية في الوقت الراهن لا تمت بأية صلة- أو على أقل تقدير لا تستجيب بعد- لمتطلبات تحليل النصوص الأدبية المعقدة^(٨٣).

كما نجده يعترف في موضع آخر- في مقدمة كتابه في المعنى II (DU SENS II)- مُدركاً سُنَّةَ التطور، ومعتزفاً بإمكانية تجاوز نظريته قائلاً إن "المشروع العلمي اليوم يُعدُّ الفضاء الوحيد الذي لا يزال يمتلك فيه مفهوم التطور معنى"^(٨٤)، ولذلك فكما تطوّرت السيميائية على يديه بعض التطور وظهرت بوجه جديد حينما تحررت من الرسم ذي الإيجاء البروبي، فعُدل كثيراً من مفاهيمه لتستجيب لضرورة التطور العلمي- عندما أسس لتركيبة مستقلة، مُمثلة في البرامج السردية، والبرامج الأساسية والمحلقة، والمواجهة الجدلية بين فاعلين تكون مساراتهما محكوماً عليها

يتبين لنا من خلال رصدنا لبعض الانتقادات التي وُجّهت إلى نظرية غريماس من قبل بعض الدارسين الغربيين، أن جل هذه الانتقادات تركّز من جهة أولى، على ذلك التعقيد الذي يكتنف بعض المفاهيم التي بنى عليها نظريته، كما تركّز من جهة ثانية على نزوعه اللافت إلى تعميم نظريته كي تنطبق على مختلف النصوص- سردية كانت أم غير سردية- مؤاخذهً عليه في ذات الصدد عدم انطباقها أو بالأحرى عدم ضبطها لميكانيزمات اشتغال النصوص السردية الطويلة- وكذا الشعرية في قضية التشاكل التعبيري- والمتحولة، ونعني الروائية بصفة خاصة، فهي- النظرية- وإن كان يُعترف لها بفاعليتها في مجال الحكايات وبعض

٨٢- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٨٤- تجدر الإشارة هنا إلى أنه «إذا كانت السيميائية لا تستجيب في الوضع الراهن للبحث، لمتطلبات تحليل النصوص المعقدة، فأغلب الظن أن مصدر التعقيد يستحيل أن ينجم عن حجم النص، فهو وليد قصور الأدوات المنهجية ليس إلا وطبيعة الجهة التي تبنى على منتهى الإشكالية». ينظر: رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، مرجع مذكور، ص ٥.

٨٠- ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٢٤.

٨١- ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٨٢- جان كلود كوكي، السيميائية مدرسة باريس، تر/ رشيد بن مالك، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

بين هؤلاء الموقع للمقال الحاضر»^(٨٦).

١.٨.٢. ميشال آريفيه: والإعتراف بسلامة بعض طروحات غريماس والإشادة بالصيت الذي حققته نظريته:

وإذا كان بريمون يعترف صراحة بسلامة كثير من الطروحات الغريماسية، ويمدّى تأثره وغيره بها، فإننا نجد «ميشال آريفيه» (M. Arrivé) يؤكد في نفس السياق ذلك الصيت الكبير الذي أحدثته مدرسة غريماس، ومبلغ تأثيرها في كثير من الباحثين المجالين له والتالين، حيث يذهب إلى القول «تأثر البنيويون، بطبيعة الحال، وفي اتجاهات مختلفة، بسوسير، هيما سلف، تير (TESNIÈRE) جاكيسون والبنيوي غير اللساني ليفي ستروس. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنهم تأثروا بشكل أو بآخر بمدرسة أليجيرداس جوليان غريماس Algiréds Julien Greimas، نذكر على سبيل المثال جان كلود كوكي Jean Claude COQUET، جوزيف كورتيس J. COURTÉS، توما بافيل (T. PAVEL) فرنسوا راستيه (F. RASTIER)، بعض مؤلفي «محاولات في السيميائية الشعرية»، وأغلب المساهمين في «السيميائية السردية والنصية». وقد تلقى أيضا أغلب المتخصصين الفرنسيين في تحليل الحكاية (كلود بريمون، كلود شابرول Claude CHABROL) جيرار جينات، بول لاريفيه (Paul LARIVAILLE)، تزفيتان تودوروف، إلخ)، بأشكال متنوعة تأثير غريماس»^(٨٧).

وأخيرا، ومهما يكن من أمر، فإن احتمال تقادم بعض مفاهيم هذه النظرية - وغيرها من النظريات الأخرى في شتى المجالات - وإمكانية تجاوزها يظل واردا، ذلك لأنه قدر كل جهد علمي. إذ أن من أهم خصائصه - كما يقول جيرار جينات بحق - «هو اعترافه بقابليته الجوهرية للتقادم، وضرورة أن يصبح يوما ما وقد صار ماضيا

بالتقاطع، بالإضافة إلى بعض القضايا المتصلة بها كالكفاءة الجهادية، وإعداد سيميائية الفاعل وسيميائية الموضوع^{٨٥} وغيرها - فإنه ليس من الغريب في شيء، أن يأتي من بعده من يعدل بعض مفاهيم نظريته، أو يؤاخذها ببعض قصورها وعدم وضوحها.

ولكن على الرغم من هذه الانتقادات التي تبدو قاسية أحيانا، إلا أننا لا نعدم في هذا الصدد من يشيد بهذه النظرية ويعترف بما قدمه صاحبها من مجهودات معتبرة في مجال تحليل النصوص السردية وضبط قوانين اشتغالها. وفيما يأتي بعض ذلك.

١.٨.١. الإشادة بوجاهة النظرية وبفاعليتها التحليلية:

١.٨.١. بريمون: والإقرار بالتأثير البالغ لنظرية غريماس في مجاليه واللاحقين له: فهذا «كلود بريمون C. BRÉMOND» على سبيل المثال لا الحصر، والذي ينطلق من رؤية موضوعية تسلم بالإيجابي فيما هي لا تغفل عن السلبي، لم تنه تلك الانتقادات الوجيهة السالفة الذكر التي يوجهها لمسى غريماس، عن الإشادة بنظريته والاعتراف بسلامة كثير من طروحاتها. مؤكدا في ذات السياق فاعلية الإسهام الذي حققته - بالإضافة إلى إسهامات أخرى في نفس المجال من قبل باحثين آخرين - من خلال إرساء قواعد متينة وعامة لنحو السرد، وبالتالي ضبط بعض خصائص سيميولوجيا الخطاب السردية كيفما كان نوعه، واستجلاء تمفصلاته الحكائية، مما جعلها - النظرية - ذات تأثير بالغ في كثير من الباحثين الذين أتوا بعد غريماس أو عاصروه، ومنهم بريمون نفسه، حيث يلهج في هذا الصدد قائلا: «يمكن النظر إلى هذا التحري على أنه موضوع مشترك بين جهود العديد من الباحثين المتأثرين وبدرجات مختلفة بفكر غريماس ومن

86- A. J. GREIMAS, Maupassant, sémiotique du texte, OP.Cit.p.9.

87- C. BRÉMOND, Logique du récit, Op.Cit. p 101.

85- Voir: A.J. GREIMAS, Du Sens II, Op. Cit. p7

السطحي) و(المستوى العميق). وفيما يأتي رصد لبعض هذه المآخذ والانتقادات، لنختتم البحث بالتطرق إلى بعض الأحكام التي يشيد فيها أصحابها بقيمة هذه النظرية وفاعليتها في الضبط والتحليل، ومبلغ تأثيرها في كثير من المهتمين والمتخصصين.

٢.١. مآخذ النظرية وسلبياتها: ميكانيكيتها وقصورها وعموض بعض مفاهيمها.

٢.١. المربع السيميائي (le carré sémiotique):

إن المربع السيميائي الذي يعتبره غريماس، نموذجاً شكلياً تكمن وظيفته في استقرار المعنى وتحوله من طور إلى طور، بمعزل عن العالم الخارجي، وتجسيده (المربع) ضمن ذلك لشكل المعنى الذي يبني عليه النص في جملته، وقدرته بمقتضى ذلك على ضبط العلاقات المنطقية القائمة بين الوحدات الدلالية الكامنة في عمق النص، وبالتالي وصف الدورة الدلالية له (النص) ضمن اكتشافه لبنية الدلالة العميقة المؤسسة للنص والمتحكمة في بنيته السطحية، نال الحظ الأوفر من الانتقاد والمؤاخذة من قبل بعض النقاد العرب.

١.٢.١. محمد مفتاح: المربع الغريماسي يُغيب البعد التاريخي في تحليل النص:

فهذا «محمد مفتاح» على سبيل المثال لا الحصر، يذهب إلى أن المربع السيميائي- الذي يوجد جوهره لدى أرسطو- باعتباره شكلاً هندسياً قائماً على أربع علائق، والذي استمدته غريماس من «بلانشو» لتشييد بنية دلالية قائمة على ثنائيتين متقابلتين** مقترحا ضمن ذلك علاقات أربعة تتمثل في التناقض والتضاد والتداخل وشبه التضاد، أدى في تصوره المنطقي إلى عدم اتساق، تجلّى في استعصاء وجود مكانة ووظيفة للحد المركب، كما أدى إلى بروز أخطاء في تعيين موقع الحد المحايد، وكذا التوليف بين الحدين في مربع الكينونة والوجود، وقد شعر غريماس وصحبه- كما يؤكد هذا الباحث- بأنواع عدم الاتساق، فأعادوا النظر في التوليدات، ووضعوا مفاهيم جديدة،

منحصراً، وهذه خاصية سلبية مثيرة للشجن خاصة بالنسبة للعقلية الأدبية التواقّة دائماً للمجد والخلود^(٨٨). ولكن حسب هذه النظرية وصاحبها، أنها قامت بمجهود علمي منظم- سيحفظه لها تاريخ علم الأدب- استطاعت من خلاله ضبط كثير من آيات اشتغال الخطاب الإنساني بعامه، والمحكي، أي الأدبي السردية بخاصة.

٢) مآزق السيميائيات السردية من منظور النقد العربي:

لم يُقبل النقد العرب- وبخاصة بعد مرحلة النضج النسبي- على هذه النظرية بانبهار وافتتان مطلقين- على الرغم من وجود مثل هذا في بداية تعرفهم إليها- حيث أن بعض مفاهيمها وتوجهاتها كانت محل نقد ومؤاخذة من لدن كثير منهم.

وإذا لم تشمل هذه الانتقادات والمآخذ كل مفاهيمها وإجراءاتها بصفة شاملة إلا فيما ندر، كشأن من ذهب إلى حد التشكيك في كفايتها، وبخاصة عندما نخرجها من محدودية الحكاية الشعبية ونمطيتها إلى رحابة النصوص السردية الجديدة وانفتاحها وتنوع تحولاتها^(٨٩)، إلا أن بعضها- كما سوف نوضح لاحقاً- لم يسلم من ذلك، وهذا ما كان من شأن مفاهيم مثل: المربع السيميائي (le carré sémiotique)، والتشاكل (Isotopie)، والبرنامج السردية (Le programme narratif) والترسيمة السردية (Schéma narratif). بالإضافة إلى بعض الغموض الذي يكتنف مفاهيم مثل: البنيات الزمنية (s. Temporelles) والفضائية s. spatiaux وعدم وضوح طرائق اندراجها في صلب النص السردية، وكيفية إسهامها في إنتاج الدلالة أو المعنى، ناهيك عن عدم وضوح ميكانيزمات الانتقال من مستوى إلى آخر في النص ضمن مستوييه المعروفين لدى غريماس (المستوى

٨٨- ميشال آريفييه، السيميائية الأدبية، تر/رشيد بن مالك في كتاب: السيميائية أصولها وقواعدها، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٢، ص ٨٤.

٨٩- عن صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مرجع مذکور سابقاً، ص ٤٣٥.

باريس) (L'École de Paris) التي يتزعمها هذا الأخير كما سبق ذكره أعلاه. حيث غدا ذلك التعريف الموسع الذي صاغه هؤلاء لهذا المفهوم، مدخلا أساسيا ولج من خلاله بعض الباحثين العرب إلى انتقاد تحديد غريماس له، من حيث كونه أبعد عنصرا جوهريا في الخطاب وهو التعبير، «كما أنه أخذ في الاعتبار الشرط الإيجابي في تعريفه للتراكب المعنوي، ولكنه لم يعر الانتباه إلى الشرط السلبي، لأن العلاقات التركيبية لا تستطيع أن تضع مقومات* [سمات] متعارضة في علاقة تجديدية (كالمساواة والحمل). ومعنى هذا [أن غريماس] راعى القاعدة المعنوية وأهمل القاعدة التركيبية المنطقية»، حسب ما يذهب إليه راستي^(٩٢).

فمحمد مفتاح في مؤلفه «تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)»، يذهب إلى أن التعريف الذي صاغه غريماس لمصطلح «التشاكل» في كتابه «علم الدلالة البنيوي ١٩٦٦» (sémantique structurale)، باعتباره "مجموعة مترابطة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلية للحكاية، كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل إبهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة"*** يتضمن قصورا واضحا، من حيث كونه يركز على تشاكل المعنى الذي عبر عنه بـ "المقولات المعنوية"، التي يقصد بها المقومات الأساسية التي يتبناها أصحاب اتجاه «التحليل بالمقومات» (analyse sémique ou analyse componentielle)، مؤكدا على أن هناك اضطرابا مصطلحيا واضحا لدى المؤلف-يقصد غريماس دون أن يوضح مكن هذا الاضطراب- كان خليقا به أن يتجنبه، ليعقب مستدركا- دون توضيح ما يقصد إليه حقيقة- على أنه قد يجاب على هذا بأن ذلك التعبير إنما هو لفظ جامع تولدت عنه مفاهيم أخرى فرعية مثل: مقوم

معترفين ضمن ذلك، بأن التمييز بين التوليد الثاني والثالث ليس ذا فائدة، وخففوا من غلواء المفاهيم المنطقية الصارمة وهيمنتها، فاقترحوا مفهوم التخصيص المتبادل، ومفهوم الترتاب والتدرج، ومع هذا يؤكد محمد مفتاح، بقي الخلط والاضطراب سائدين، لبقاء مكن الداء، والتمثل في تعقيب البعد التاريخي^(٩٠).

ولكن ما ينبغي التنبيه إليه هنا، هو أن السيميائية لا تلغي البعد التاريخي في مقارباتها -كما يذهب إلى ذلك محمد مفتاح- وهذا من حيث كونها - في حقيقة أمرها- نتائج مجموعة من الأسس أو التصورات الفلسفية الخاصة بالإدراك وإنتاج القيم وتداولها، بالإضافة إلى أنه لا يمكنها، وبخاصة في إطار الممارسة التطبيقية، أن تخلو من تأويل أولي يمتد إلى عناصر هذه النظرية نفسها، وذلك وفق التصور الذي يملكه الشخص المؤول عن الحياة وعن الإنسان.

٢.٢. التشاكل (Isotopie):

٢.٢.١. محمد مفتاح: تشاكل غريماس قاصر عن استيعاب النصوص غير السردية:

أما التشاكل بوصفه مفهوما إجرائيا لجأ إليه غريماس لتأكيد انسجام الخطاب، أو إيضاحه وإن كان مبهما، أو تشبيد موضوعاته ورسائله العامة والخاصة^(٩١)، مقصرا إياه على المضمون دون التعبير^(٩٢)، فقد لقي توسيعات من قبل بعض أتباعه قبل أن يلقى اعتراضات وانتقادات من قبل غرمائه؛ وهذا ما كان قد قام به كل من "فرانسو راستي" (F.RASTIER) و"جماعة أم" (Groupe M)، وهما من أتباع غريماس ومن أعمدة «مدرسة

٩٠- على نحو ما يذهب إليه الأستاذ عبد الملك مرتاض في مؤلفه، نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٨، ص. ٢٤٦-٢٥٢. وكذلك، سعيد بنكراد في كتابه، مدخل إلى السيميائيات السردية، مرجع مذكور سابقا.. ينظر على سبيل المثال الصفحات: ٥٧، ٥٨، ٧٦، ٧٧، ٨٧، ٨٩.

٩١- ينظر: محمد مفتاح، حول مبادئ سيميائية، علامات، مرجع سابق، ص ٥٤، ٥٥.

٩٢- ينظر: محمد مفتاح: بعض خصائص الخطاب، مجلة علامات، مرجع مذكور سابقا، ص ١١.

93- A. J. GREIMAS, J.COURTES, Dictionnaire raisonné... op.cit.p.p. 197, 199.

التي يطرحها أكثر من أن تحصى، «ومنها صعوبة التمييز بين المقومات الذرية واللوازم والأعراض، ومنها أن تحليل الشيء أو المفردة مرتبط بخبرة المحلل ومعرفته الموضوعية، وبطبيعة ما يعرف، ذلك أن التحليل المعتمد على الحس المشترك ليس هو التحليل المستند إلى المعرفة المتخصصة، لقد حللنا المثال السابق* بمعرفة الحس المشترك، لكن تحليل الطبيب، أو المشرح أو الكيميائي أو عالم النبات أو التغذية يختلف بعض الاختلاف عن تحليلنا الجمهوري العاملي، ومنها أن المفردات المليئة يسهل فيها هذا التحليل وتقبله عكس المفردات المجردة التي يصعب تفكيكها إلى مقومات وسمات^{٩٩}» .

وعليه، كما يضيف الباحث ذاته، فإذا كان هذا الإجراء- التحليل بالمقومات- فعالاً في ميادين معينة فإن كثيراً من الإبداعات المعاصرة تبقى بمنأى عنه، مقترحا ضمن ذلك لتجاوز هذا القصور- كما يرى- وبالتالي الولوج إلى حمى هذه النصوص، تبني إستراتيجية استكشافية تؤدي في نهاية المطاف إلى مشاكلات مماثلة للتشابه العائلي (L'aire famille)، ذلك لأن أفعال الإنسان وأعماله، كما يجترح، لا بد أن تكون منظومة في سلك الوعي واللاوعي الواعي، لأن ما يفرق بين الإنسان وغيره هو أولية الوعي^(١٠٠).

يتبين لنا من خلال هذا، أن ما يطرحه محمد مفتاح في هذا الصدد، لا يختلف كثيراً عما طرحه كل من "ف.راستي"، و"جماعة أم"، بخصوص توسيع التشاكل ليشمل التعبير والمضمون معا**، كما لا يختلف عن تلك التساؤلات التي طرحها "جونتان كلر ١٩٧٥"^(١٠١) Culler (J.) حول القواعد العلمية التي ينبغي الاستناد إليها لتحقيق أو إنجاز قراءة تشاكلية، مع بعض محاولات التوسيع والتأسيس التي يأتيها مفتاح كالعادة.

٩٩- المرجع السابق نفسه، ص ٥٨.

١٠٠- المرجع نفسه، ص ٥٨.

١٠١- ينظر: محمد مفتاح، حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، مرجع مذكور سابقاً، ص ٦٠.

(sème) ومقوم سياقي (sème contextuel)^(٩٤).

ولكننا نشير هنا إلى نظرية التحليل السيمي التي تبناها غريماس في بحوثه هي للسانى برنار بوتى (Bernad POTTIER)، وهو أمر قد أغفله محمد مفتاح في هذه الاعتراضات التي يثيرها.

ولعل ما يهم «محمد مفتاح» في كل هذا، هو أن غريماس ركز في هذا الجزء من التعريف على التشاكل المعنوي فقط، كما أنه اقتصر على الحكاية دون غيرها، في حين أن التشاكل- كما يذهب إلى ذلك مفتاح ومن قبله «راستي» و«جماعة أم»* موجود ملاصق لكل تركيب لغوي، فعبارة «الأقوال» التي يوظفها غريماس في تعريفه السالف الذكر، توحى- حسب مفتاح- بأنه لم يعر انتباهها إلى التقسيم الثنائي (المقال، القول) الذي أصبح معروفا فيما بعد^(٩٥).

بالإضافة إلى هذا، يذهب الباحث نفسه في مقال له بعنوان «حول مبادئ سيميائية»^(٩٦) إلى أن التحليل بالمقومات** (السيمات) (les sèmes) الذي يعد نواة القراءة التشاكلية ومرتكزها الأساسي، على الرغم من فوائده، وعلى الرغم من أنه يعد ضرورة من الضرورات العلمية للقيام بالفرز والتصنيف وصنع الأجناس والأنواع^(٩٧)، إلا أنه يطرح عدة مشاكل؛ فإن كانت فوائده تتمثل في أنه يسمح بتصنيف الكيانات والكائنات في أجناس وأنواع، كما يسمح بتوسيع دلالة المحلل أو تصنيفها بإضافة سمة أو نقصها لتحقيق الترابط بين الأشياء وإلحاق بعضها ببعض باستعمال المقايسة أو التشبيه والاستعارة، وينتج عنه إنجاز قراءات متعددة للظاهرة أو للخطاب و/أو النص وتبيان وسائلها الأساسية والثانوية^(٩٨)، إلا أن المشاكل

94- F. RASTIER, "Systématique des isotopies" in op.cit.p.82.

٩٥- ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري «استراتيجية التناص»، ص ٢٠ وما بعدها.

٩٦- المرجع نفسه، ص ٢٠.

٩٧- محمد مفتاح، حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، مكناس، المغرب، ١٦، ٢٠٠١.

٩٨- ينظر: المرجع السابق، ص ٦٠.

التي توصل إليها ج. جينات (G.GENETTE) بالنظرية السيميائية، يعد ضرورة منهجية- كما يرى ذات الباحث- بإمكانها ترميم الخلل الذي تنطوي عليه دراسة الزمن عند السيميائيين، فهي- نتائج أعمال جينات- إذا كانت من جهة تساعدنا على التحكم في التركيبة الزمنية وضبط أبعادها الدلالية المتنوعة، فإنها من جهة أخرى تسهم في إظهار مقطوعات النص السردي وضبطها^(١٠٣).

١. ٢. ٣. ٢. سعيد بنكراد: ثنائية غريماس الزمنية لا تستوعب إشكالية التزمين داخل النص ولا تحدد موقعه ودوره ضمنه: وفي سياق هذه الانتقادات نفسها يذهب "سعيد بنكراد" إلى أن تلك التحديدات الزمنية التي يضعها غريماس لعنصر الزمنية في النص السردي*، على الرغم من قيمتها النظرية والتطبيقية في فهم ميكانيزمات اشتغال النص السردي وتوضيحها، وكذا فهم أصول تحول الأحداث فيه- المدركة زمنياً- إلى قصة- التقطيع الذي تخضع له الكتلة الزمنية لكي تصبح شكلاً قابلاً لإدراك- إلا أنها مع ذلك لا تجيبنا عن كثير من الأسئلة الجوهرية التي تطرحها مشكلة التزمين داخل النص السردي، والخاصة بالبعد الزمني ونمط وجوده داخل هذا النص، ولا عن كيفية تصرف السارد في هذا الزمن وأنماط توزيعه داخل نسيجه، فضلاً عن أنها لا تمدنا بأدوات إجرائية واضحة تسمح لنا بتحديد دقيق لموقع العنصر الزمني داخل النص، وكذا تحديد دوره في إنتاج المعنى، ولذلك- كما يضيف- فإن القارئ سيجد في نظرية ج. جينات (G.GENETTE) العناصر الكافية لملء هذا الفراغ، وتغطية هذا النقص الذي تشكو منه الصياغة الغريماسية لقضية الزمن^(١٠٤).

٢. ٣. البنيات الزمانية والفضائية (Structures spatio-temporelle):

١. ٣. ٢. رشيد بن مالك: ثنائية غريماس الزمنية قاصرة عن التحكم في التركيبة الزمنية للنص وعاجزة عن ضبط أبعادها الدلالية:

لم تسلم البنيات الزمانية والفضائية بوصفها مفاهيم إجرائية بنى عليها غريماس بعض أسس نظريته من انتقادات وجهت إليها؛ حيث نجد في هذا الصدد الباحث "رشيد بن مالك" على سبيل المثال، يذهب إلى القول أن النتائج المتبصرة التي حققتها بعض الدراسات البنيوية لإشكالية الزمن في النص السردي مثل أعمال رولان بارت R.BARTHES وت. تودوروف T.TODOROV، وخصوصاً أعمال "جيرار جينات (G.GENETTE) الذي يعد من البنيويين البارزين الذين خصصوا بحوثاً عديدة للزمن في النص السردي*- لم تستغل في البحث السيميائي بكيفية لائقة، على الرغم من كونها تكتسي أهمية بالغة في ضبط القنوات التي يمر عبرها المعنى، وتمثل في الآن نفسه أداة وصفية فعالة في تحليل النصوص ومساءلتها وتحديد برامجها السردية، حيث اكتفى السيميائيون- وعلى رأسهم غريماس- في بحوثهم بالتقطيع الزمني الثنائي الذي تتبني فيه الحكاية على الثنائية الزمنية: (قبل عكس بعد)، مختزلين إياه في شكل يخفي كثيراً من التفاصيل الزمنية التي تحكم الحكايات الصغيرة في صلب الحكاية الأم المروية قبل وقوع الحدث الحاسم^(١٠٥).

إن فهم الحكاية حسب ما يذهب إليه رشيد بن مالك، مشروط بضبط المفارقات الزمنية، أي التغيرات الزمنية التي تطرأ على التلاقي الزمني بين القصة والخطاب، وإبعاد هذه المفارقات- كما فعل السيميائيون في اختزالهم- يؤدي إلى إقصاء الدور الحاسم الذي تلعبه في تحديد المسار الدلالي العام للنص السردي، ولذلك فإن وصل النتائج

١٠٣- ينظر: رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، مرجع مذكور سابقاً، ص ٨٥.
١٠٤- ينظر: المرجع نفسه، ص ٨٥، ٨٦.

102- J. CULLER, Structuralized poetics, Rutledge and keg an paul, 1975.

وفقها غريماس، إنه ليس تحديدا لنوعية الفعل، ولا لتوقية ما، بل هو عنصر مساهم في عملية إنتاج المعنى، ودلالته لا تأتي من العناصر الطبيعية المشكلة له، بل تأتي عن طريق عرض هذا الفضاء ومن ثمة طبيعة الدلالة التي تمنح له داخل النص السردية، ذلك أن عملية انتزاع العنصر الطبيعي من بنيته الأصلية وتثبيتها داخل بنية جديدة (عالم النص السردية) تمنح للفضاء دلالة جديدة هي تركيب لمعنيين: معنى العنصر داخل البنية الأولى، ومعناه داخل البنية الثانية. وهكذا فإن أي فضاء قد يشتغل كفضاء عدواني كما قد يشتغل كعنصر مساعد^(١٠٦). والأمر نفسه ينطبق على ما يسمى بالفضاء المفتوح والفضاء المغلق، فالانفتاح ليس خصيصية معطاة بشكل سابق على تحيين الفضاء داخل النص، وكذلك هو الشأن مع الانغلاق. إن تنظيم العناصر السردية، وطريقة تحيين القصة داخل نص ما هو الذي يحدد طبيعة هذا الفضاء أو ذاك حسب ما يذهب إليه هذا الباحث^(١٠٧).

٢.٤ البرنامج السردية (Le programme narratif) والترسيمة السردية (Schéma narratif):

– عبد الملك مرتاض: غموض المفاهيم التي يصطنعها غريماس ولا جدواها في عملية التحليل:

دائما في سياق الانتقادات الموجهة إلى بعض مفاهيم نظرية غريماس، يذهب عبد الملك مرتاض في مؤلفه (في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد" ١٩٩٨) إلى القول إن التقريرات التي يأتيها غريماس وكورتيس بشأن البرنامج السردية* "لا تقوم لها قائمة، في منظورنا، لأنها ترتبط بشبكة من المفاهيم الأخرى التي تحتاج، هي أيضا، إلى تقديم وتفسير. وفي بعض الأطوار لا يكون لها تفسير مقنع فتظل معلقة في الهواء دون غناء. ويبدو أن غريماس أراد أن يعلم السردية،

٢.٣.٢.٢. سعيد بنكراد: تصنيفات غريماس الفضائية غير قادرة على استيعاب النصوص السردية الطويلة:

أما بخصوص التصنيفات التي أوردتها غريماس لعنصر الفضاء في النص السردية، فيذهب «بنكراد» إلى أنها تصنيفات لا يمكن أن تتجاوز حدود الحكاية الشعبية المعروفة بشكلها السردية الثابت وصيغتها التلفظية القارة، ونمطيتها المعهودة، بحيث يصعب وجود معادل لها- التصنيفات- في النصوص السردية المعاصرة التي تتميز بتنوعها واختلاف طرائق تعاملها مع الفضاء عما هو عليه في الحكاية الشعبية.

فما يقدمه غريماس في هذا المجال، لا يجب- في نظر بنكراد- إلا عن حركة البطل داخل المساحة الزمنية والفضائية التي تغطي الحكاية الشعبية. وهو من هذه الناحية لا يعد سوى رسم لحدود أي فعل ولموضعه داخل هذه التجربة أو تلك. فالحكاية الشعبية بسبب خصائصها السالفة الذكر، تجعل التنقل داخل الفضاء عنصرا بالغ الأهمية ولا يمكن لأي حكاية أن تحيد عن هذا الشكل، ذلك لأن البطل لكي يكتسب هذه الصفة- صفة البطولة- عليه أولا أن يغادر المكان الذي توصف داخله الحالة البدئية ليلقي بنفسه داخل إطار فضائي مجهول، ليصل إلى الموضوع الذي يمكنه من تحديد حالة اتصال جديدة وعليه فإن الفعل المحدد لحالة «النقص» هو دائما فعل خارجي، تقوم به قوى تنتمي إلى فضاء مجهول يفصله (أو ينتمي إلى قيم مرذولة محليا)، وهذا الأخير دائما يفصله عن الفضاء اعتداء يحتوي على عناصر مساعدة للبطل وأخرى معيقة أو تمثلها قوة واحدة^(١٠٥).

أما الفضاء في النصوص السردية المعاصرة، فإنه يشتغل- حسب ما يذهب إليه بنكراد- وفق طريقة مغايرة تماما لتلك الطريقة التي حدده

١٠٦- المرجع نفسه، ص. ٨٩، ٩٠.

١٠٧- المرجع السابق، ص. ٩٠.

١٠٥- ينظر: سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، مرجع مذكور سابقا، ص. ٨٦، ٨٧.

المستوى الذي يعرفه حين يتحدث عن شؤون اللغة واللسانيات^(١١٤).

لكن يبدو لنا، أنه على الرغم من وجهة بعض الملاحظات التي يبيدها الأستاذ عبد الملك مرتاض هنا بشأن تلك التعقيدات التي نكتف بعض المفاهيم الغريماسية- والناجحة أساسا عن تنوع المصادر العلمية لهذه النظرية وتشعب روافدها، وطموحها إلى تشييد نظرية شاملة يمكن بمقتضاها تحليل مختلف الخطابات البشرية كيفما كانت تجلياتها وكيفما كانت المواد الحاملة لها، كما رأينا في الصفحات السابقة من هذا البحث- إلا أن هناك بعض المبالغة فيما ذهب إليه الباحث، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تلك الفتوحات المنهجية التي حققتها هذه النظرية في دراسة النص الأدبي عموما، والنص السردي خصوصا، والتي لازالت روحها التحليلية، بغض النظر عن تفاصيلها وجزئياتها، حية تمتلك جدواها وتقرض راهنتها على الباحثين والمختصين.

٢.٥. انتقاد للنظرية في شموليتها والدعوة إلى تجاوزها:

١.٢.٥.١. مفتاح: مأزق سيميائية غريماس والدعوة إلى ضرورة تبني سيميائية تركيبية: يذهب محمد مفتاح- في هذا الصدد- بعد استعراضه المختصر لبعض النظريات المستحدثة التي جاءت بعد نظرية غريماس. متبنية بعض مفاهيمها، ومتجاوزة الأخرى؛ مثل: النظرية الكارثية، والبيولوجيا الميكانيكية المادية ونظرية الحرمان وغيرها^(١١٥)، يذهب إلى القول إن سيميائية غريماس أصبحت- على الرغم من احتوائها على مبادئ علمية- بالنسبة إلى هذه الوضعية المحدثة متأزمة، إنها متأزمة داخليا كما يرى، متسائلا -في سياق حديثه عن وجوب اعتماد تقنية التركيب المنهجي- فإذا ما اختارها الباحث وزادها اختزالا فكيف سيصبح الأمر؟ مؤكدا في هذا الإطار،

كما كان فعل ذلك فلاديمير بروب، فلم يفدها كثيرا^(١٠٨).

إن المفاهيم التي يصطنعها غريماس كمصطلحات لعلوم السرد، لا تؤدي، في نظر عبد الملك مرتاض إلى نتيجة تذكر، ف"مثل هذا الذي يطلق عليه «البرنامج السردى» لا تقضي عناصره إلا إلى تعقيد الكتابة السردية^(١١٠)، لكونها "تتجسد في سلسلة من المفاهيم المعقدة التي يحيل بعضها على بعض، ويتوالج بعضها مع بعض، إلى درجة التيه والحيرة"^(١١١). أما الترسيم السردية (Schéma narratif)، فيتساءل الباحث بشأن ماهيتها، وبشأن ما إذا كانت «تعني شيئا حقا في نظرية السرد، بحيث إذا تعاملنا معها استطعنا أن نحلل النص السردى بكفاءة وفعالية؟"^(١١٢).

فبالإضافة إلى تلك الحشود الحاشدة من المصطلحات الجديدة التي استوحاها غريماس من علوم شتى كالنحو واللسانيات العامة، وغيرها من العلوم الأخرى، والتي حاول أن يتكبد بها عن سبيلها، ويمنحها معاني جديدة لتفتدي مفاهيم سيميائية يتداولها الناس بينهم ويتخذونها مفاتيح لبعض هذا العلم، والتي لم يكن التوفيق حليفها حسبما يذهب إليه الباحث^(١١٣)، فإن "اللغة التي يصطنعها غريماس لا تكاد تقوم لها قائمة في حقل المفاهيم، حيث أن كل مفهوم يحيل على مفهوم آخر، في غرفة مظلمة لا نعتقد أن يهتدي السبيل إلى بابها إلا قلة من الناس، ربما يكون من بينهم غريماس... ولكن من يدرينا؟ فربما لا يكون هو أيضا من بينهم"^(١١٤). فعلى الرغم من أن غريماس- كما يؤكد الباحث- عالم لسانياتي، أو منظر لغوي، إلا أنه "حين يتحدث عن الأدب تتعثر به القدم، ويضطرب له الطريق، فلا يعرف

١٠٨- ينظر المرجع السابق، الصفحة نفسها.

١٠٩- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨، ص ٢٤٨.

١١٠- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١١١- المرجع السابق، ص ٢٤٧.

١١٢- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

١١٣- المرجع نفسه، ص ٢٤٨.

١١٤ المرجع السابق، ص ٢٤٦.

١١٥- المرجع نفسه، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

لاعتقاده بأن النظرية الواحدة مهما كانت قوة إجرائيتها وفعاليتها، تعد قاصرة في مواجهة النص، ولذلك ينبغي تطعيمها بنظريات أخرى من أجل تحليل أكثر عمقا للنص^(١٢٠) - ينطوي على كثير من الغموض، كما أن البديل الذي يقترحه يبدو على درجة كبيرة من الإبهام، ويحتاج إلى توضيح. ناهيك عن أن نزعة التعدد هذه تنال من تماسك البناء العام للنظرية وتخل به بسبب تلك الانتقائية التي تقرضها بالضرورة على متبنيها.

٢.٥.١.٢.٥.٢. مرتاض: غموض نظرية غريماس وقصورها الكلي:

أما عبدالمكرم مرتاض، ففضلا عن تلك الانتقادات التي وجهها إلى البرنامج السردية كما صاغه غريماس، وإلى بعض المفاهيم الأخرى: (الترسيمة السردية مثلا)، والتي يراها غامضة ومستغلة وفيها كثير من التعمر، والتي أشرنا إليها سابقا، فإنه يحكم - في موضع آخر - على محاولة غريماس أو نظريته كلها، والهادفة إلى تقنين الكتابة السردية، بأنها تبدو مجرد استساخ أو معارضة لعمل فلاديمير بروب (Vladimir Propp) في تنظيراته للحكاية الخرافية، مبينا في ذات الصدد الفرق الشاسع ما بين بنية الحكاية الخرافية (Le conte merveilleux) الأزلية والعالمية والثابتة الشكل والنمطية إلى أبعد حد، وبين بنية الرواية التي هي - على ثباتها - ذات شكل متحول ومتطور دوما^(١٢١). ولعل ما يضعف من قيمة جهد غريماس، في نظر ذات الباحث، هو أن البنية الروائية مترجحة معتاصرة على التنظير الصارم**، لكونها إبداعا مفتوحا وقابلا لشتى التغيرات والتحويلات، حيث المبدع يملك كل الحق - على عكس الحكاية الخرافية - في أن يبتكر

أن السيميولوجيا الحالية، ليست سيميولوجيا غريماس، بل تلك التي تطبق مفاهيم بيولوجية ومفاهيم فيزيائية ومفاهيم الذكاء الاصطناعي، هي سيميولوجيا تركيبية^(١٢٢).

إن نظرية غريماس، التي هي نظرية مفهومية علاقية وصفية، كما يؤكد ذات الباحث، من حيث كونها تنطلق من مفاهيم أولية غير محددة، معتبرة إياها ككليات فرضية مثل: الانقطاع، والاتصال، والعلاقة، والتمايز، والكلية والجزئية، وغيرها... نشقت منها مفاهيم أخرى تبني عليها النظرية، مما يجعلها وسيطا بين المفاهيم الأولية اللامحدودة والمعطى التجريبي، مسلمة قبل ذلك وبعده بالاستقلال الوجودي للشكل السيموطيقي، إن هذه النظرية لم تتقن الكارثيين بأوصافها^(١٢٣) لذلك حاولوا - كما يضيف - "حل مشاكلها الحادة - أي المفاهيم الأولية والمورفولوجيا التصنيفية - بإعادة بناء رياضي لواقع ظاهراتي متجل في السيميائيات اللسانية، متخذين الهندس، أساسا لتوليد المفاهيم، ومعتبرين الموقع منطلقا لإقامة العلاقات بين المفاهيم المولدة المنظمة المستقرة المنغلقة البنية الأولية المؤلفة بقيود"^(١٢٤)، حيث أن الأمر هنا - كما يقول بتيتو (PETITO) "يتعلق بدنامية عامة من نوع جديد كما يتعلق الأمر بتحليل موقعي (Analysis Situs) أصيل يستطيع أن يتحمل الوظيفة الجمالية المتعالية البنيوية"^(١٢٥).

٢.٥.١.٢.٥.١. رأينا: سيميائية مفتاح التركيبية عرضة لمزالق منهجية عدة:

يبدو لنا في هذا الصدد، أن كلام محمد مفتاح - المعروف بتوجهه «التناهي»، أو بعبارة أخرى، بنزوعه نحو تقنية «التركيب المنهجي»،

١١٦- لمزيد من التفصيل، ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز، مرجع مذکور، ص. ٣٥، ٣٤.

١١٧- ينظر: التحليل السيميائي أبعاده وأدواته، حوار مع محمد مفتاح، أجراه عبد الرحمان طنكول، ومحمد العمري، وحفيد لحميداني، مجلة دراسات أدبية لسانية (سا ل)، المغرب، ع ١، خريف ١٩٨٧، ص ١٤، ١٥.

١١٨- ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، مرجع سابق، ص ٣٥.

١١٩- المرجع نفسه، ص ٣٥.

١٢٠- عن المرجع السابق، ص ٣٥، ٣٦.

١٢١- ينظر الحوار السابق ذكره، ص ١١ وما بعدها. وغيرها من الدراسات الأخرى المذكورة سابقا والتي يصرح فيها الباحث بهذا التوجه.

في مقاربتة لنص «المدينة» (La ville)^(١٢٧) لـ «بول كلوديل» (P. CLAUDEL) وغيرهم.

أما في العالم العربي وتحديدًا المغاربي، فتجد العديد من المقاربات السيميائية المتميزة لهذا الجنس الأدبي (الرواية)، منها على سبيل المثال لا الحصر: دراسة الباحث المغربي «عبد المجيد نوسي» حول رواية «اللجنة» لـ «صنع الله إبراهيم»، وهي دراسة متميزة يختار فيها صاحبها المرجعية السيميائية منهجًا للتحليل. وتكمن أهميتها- الدراسة- في استيفائها لكل الشروط والمستلزمات التي تفرضها النظرية الغريماشية، سواء أمن حيث الأصول والمنطلقات الاستيمولوجية والمنهجية أم من حيث تمثل المفاهيم الإجرائية وتطبيقاتها على نص اللجنة^(١٢٨). ومثلها أيضًا دراسة الباحث الجزائري رشيد بن مالك «السيميائية بين النظرية والتطبيق، رواية نوار اللوز نموذجًا» (١٩٩٥)^(١٢٩) والتي استطاع من خلالها صاحبها- عبر تأصيل النظرية وتبويبها ثم اختبار أدواتها الإجرائية- أن يثبت قابلية هذه النظرية لاستيعاب نص سردي بحجم رواية ومقاربتة. كما نجد أيضًا دراسة الباحث المغربي سعيد بنكراد الموسومة بـ «شخصيات النص السردي» البناء الثقافي ١٩٩٥^(١٣٠)، والتي حاول فيها مقارنة الشخصية الروائية لرواية «الشرع والعاصفة» لحنامينا، من منظور السيميائيات السردية وبخاصة في مستوي التركيب السردي والعالمي. وهناك أيضًا دراسة الباحث السعيد بوطاجين (الجزائر) «الاشتغال العالمي»^(١٣١)، التي يطبق فيها بعض مفاهيم

فيقدم ويؤخر ويغير ويبدل^(١٣٢).

إن التنظير الذي يأتيه غريماس، لا يقع في نظر عبد الملك مرتاض، إلا على الأعمال الروائية البسيطة، أو التقليدية، أو التي حرم أصحابها من التوفيق أو أولئك الذين يودون تقييد حريتهم الإبداعية بالقواعد الصارمة، والضوابط المحكمة، ويكبلوا عقولهم بالنظريات التي قصارها اللهاث وراء الإبداع العظيم. ولذلك فإن «تودوروف (T.TODOROV) يعد في نظر «مرتاض» أعرف من غريماس بالسرديات، في حين أن «جيرار حينات (G.GENETTE) قد يكون أبرع منهما، معًا في تحليل الأعمال السردية ومحاولة مقاربتها والتنظير لها»^(١٣٣).

٢.٢.٥.٢. رأينا: طرح مرتاض يفضّل واقع البحث العلمي وحركيته في هذا المجال:

ولعل أهم ما يلفت الانتباه في طرح مرتاض هذا، هو قوله بعدم قدرة هذه النظرية على تحليل نص بحجم الرواية، بسبب طولها أولاً، وبسبب شكلها المتحول والمتطور باستمرار ثانياً^(١٣٤). غير أن هذا الرأي لا يتوافق- في اعتقادنا- وواقع البحث العلمي وحركيته في هذا المجال- مجال المقاربة السيميائية للرواية- في الغرب كما في الشرق. فلقد حققت الدراسة السيميائية للرواية تراكما معرفيا ومنهجيا مع عدة دارسين بعد غريماس لا يستهان به، ومن أمثال هؤلاء في الغرب، نذكر: جوليا كريستيفا (J.KRISTEVA) في «دراستها» نص الرواية "Le texte du Roman"^(١٣٥)، وإمبراطو إيكو (U.ECO) في بحثه "القارئ والحكاية" (Lector in fabula)^(١٣٦)، وج.ك.كوكي (J.C.COQUET)

127- J. C. COQUET, Le discours et son sujet pratique de la grammaire modale, Kilincksieck, Paris 1985.

١٢٨- ينظر: محسن عمار، مدخل إلى السيميائيات بالمغرب (محاولة تركيبية)، مجلة علامات، مكناس، المغرب، ع ٢٠٠٢، ص ١٠٤.

١٢٩- الدراسة عبارة عن أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، ١٩٩٥.

١٣٠- سعيد بنكراد، شخصيات النص السردي (البناء الثقافي)، منشورات، كلية الآداب، مكناس ١٩٩٥.

١٣١- السعيد بوطاجين، الاشتغال العالمي، دراسة سيميائية «غدا يوم جديد» لعبد الحميد بن هدوقة، مرجع مذكور سابقا.

١٢٢- ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص ٢٤٩-٢٥٠.

١٢٣- ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

١٢٤- ينظر: المرجع السابق نفسه، ص ٢٥١، ٢٥٢.

125-J. KRISTIVA, Le texte du roman, Mouton, Paris 1970.

126. Umberto ECO, Lector in Fabula, Grasset, Paris 1985.

وهذه النسخة هي سبيلنا الأوضح للتعرف على الأصل الأول والعودة إليه من جديد^(١٢٤). إن أمرا كهذا - يضيف الباحث - يشكك في جدوى القيمة الاستكشافية لأي تحليل. فإذا كانت هذه العمليات مبرمجة بشكل سابق داخل بنية دلالية بسيطة تحتوي على سلسلة من العلاقات هي ما يجب تطويره لاحقا لإغناء النموذج من خلال تحققه في واقعة نصية مخصوصه (النص السردي في حالتنا)، فإن النص يكشف بشكل مبكر عن كل أسراره، ولن يقوم القارئ سوى بالكشف عن معنى مودع بشكل سابق في النص ويتخذ شكل تناظر دلالي عام على المحلل أن يصل إليه^(١٢٥).

ولتدعيم طرحه هذا يستند الباحث إلى مقولة لـ "امبراطو إيكو (U.ECO) قائلا وفي هذه الحالة - الحالة المشار إليها أنفاً - "لن تكون هناك أحداث ولن تكون هناك مفاجآت ولن يكون شيء يروى، وسيكتفي التركيب السردي السطحي بوصف تناقضات تامة وعلاقات ضدية تامة واقتضاءات تامة"^(١٢٦).

غير أن ما تنبغي الإشارة إليه هنا، هو أن هذه الأخيرة، هي علاقات يحتضنها النص الثقافي قبل أن تتحقق في نص مخصوص. فخصوصية النص الدلالية والجمالية - التي تغفلها هذه النظرية بتوجهاتها هاته، وتوقعاتها المبرمجة سلفاً - لا يتحدد من خلال المجرد، بل يتحدد من خلال التصويري، لأن المعنى لا يوجد في النماذج العامة، بل تحتضنه الوقائع المخصوصة^(١٢٧).

وفي إطار هذه الانتقادات التي يقدمها الباحث لهذه النظرية، بغرض التنبيه إلى وجوب عدم الاستكانة المطلقة لتصوراتها، والارتهان التام إلى ترسانة مفاهيمها، لما تنطوي عليه من نقائص، والدعوة الصريحة إلى تطعيمها بتصورات نظرية

نظرية غريماس على رواية (غدا يوم جديد) لعبد الحميد بن هدوقة، وإن تم الاقتصار على بعض مفاهيم السيميائية (الترسيمات والمثلثات العاملة) دون غيرها.

٣.٢.٥.٢. بنكراد: نظرية غريماس تغفل خصوصية النص الدلالية والجمالية، وتتجاهل تميزه بتوقعاتها المبرمجة سلفاً:

يذهب الباحث المغربي سعيد بنكراد في مقال مهم له بعنوان "ممكّنات النص ومحدودية النموذج"^(١٢٨)، إلى طرح تساؤل جوهري - ينبئ عن رؤية نقدية لا تستسلم للأحكام المطلقة، ولا تركز إلى الجاهز من القول - مفاده:

"هل يمكن لنموذج تحليلي - [يقصد نموذج غريماس] - بنى كل فرضياته المعرفية استناداً إلى نصوص سردية من طبيعة حكائية تقليدية تبنى عوامها الدلالية استناداً إلى بنيات من طبيعة وظيفية، أن يقودنا إلى فهم أفضل لنصوص سردية تبنى عوامها الدلالية استناداً إلى القرائن وتصوير الحالات الإنسانية المركبة؟"^(١٢٩).

وفي خضم إجابته عن هذا التساؤل الوجيه - بعد عرضه لفرضيات هذه النظرية وأسسها وتصوراتها للنص بأمانة ودقة - نلفيه يذهب إلى القول بأن التصورات التي تقدمها لنا السيميائيات السردية - في توجهها الغريماسي على الأقل - حول نمط النص السردي في دلالاته وتوقعاته وآليات برمجة هذه التوقعات، وكذا الأسس التي تعتمدها في رحلتها التحليلية هذه، تجعل «هذا النص يبنى، كما يبدو ذلك من خلال هذا التصور، على شكل رحلة لاهوتية محكومة بقصدية مطلقة تقود بين طرفين معروفين: أصل مولد لا تدرکه الأبصار أولاً، ثم تحققه من خلال نسخة مشخصة ثانياً،

١٢٤ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٢٥ - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

١٢٦ - المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها. وانظر أيضاً: امبراطو

إيكو (U.ECO) في بحثه الموسوم: «القارئ والحكاية» (Lector in

fabula) و بخاصة فيما يسميه بالطوبيك، ص ١١٢،

١٢٧ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٢٢ - سعيد بنكراد، ممكّنات النص ومحدودية النموذج، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمحرر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد ١، ٢٠٠٥، ص. ١١-٢٤.

١٢٣ - المرجع نفسه، ص. ١٩.

اشتغالها خصوصاً. وفيما يأتي رصد لبعض ذلك.
٢.٦. الإشادة بفاعلية النظرية تحليلياً
وبقوتها إجرائياً:

٢.٦.١. مفتاح: نظرية غريماس أشمل نظرية
لتحليل الخطاب الإنساني بتحفظ:

فهذا محمد مفتاح لا يجد مناصاً - على الرغم
من تلك الانتقادات التي يوجهها لهذه النظرية
انطلاقاً من التطور المعرفي المترد في بعض
النظريات الجديدة والتي سبقت لنا الإشارة
إليها قبل قليل - من الاعتراف قائلًا - بعد إشارته
المختصرة للمصادر المعرفية التي استقى منها
غريماس نظريته - " وإن المرء ليستطيع أن يقول
إنه يقصد التيار السيميوطيقي أو السيميائي الذي
يعد غريماس في نظره أهم ممثل له [أشمل نظرية
لتحليل الخطاب الإنساني، ولكن هذا التعميم
يجب أن يقابل بحذر شديد، ذلك أن خصوصيات
كل خطاب تتأبى عليه فلا يستطيع ضبطها
وتشخيصها بما فيه الكفاية"^(١٣٩).

٢.٦.٢. رشيد بن مالك: فتوحات غريماس
المنهجية لا يمكن إنكارها:

يلمح رشيد بن مالك إلى أن النتائج التي
حققتها مجهودات غريماس في فتح مستغلات
إشكاليات المعنى والدلالة بصفة عامة، لا يمكن
إنكارها، فإذا كان ظهور كتابه «علم الدلالة البنيوي
١٩٦٦» (Sémantique structurale) - الذي يقول عنه
ج.ك. كوكي (J.C.COQUET) إنه يعد أول بحث في
السيميائية اللسانية^(١٤٠) - بمثابة المحطة الأساسية
التي تبلورت عندها معالم البحث الدلالي، بعدما
كانت - قبل ظهوره - تشكل عائقاً لم يكن من السهل
تجاوز مفعولاته لاعتبارات عديدة، فإن كتابه « في
المعنى II ١٩٨٢ Du Sens II - الذي أجرى فيه
مجموعة من التعديلات لمشروعه السيميائي، نذكر
منها بصفة خاصة سد تلك الهوة الموجودة بين

أخرى أكثر حداثة، يصل به الأمر إلى القول إن
هذه النظرية - نظراً للتطور الحاصل في ميدان
المعرفة - لم تعد «تغري كثيراً الباحثين في ميدان
التحليل السردي فحكاية الذات والموضوع والغايات
الكبرى والصغرى التي نعانيها في الأساطير
والحكايات الشعبية لا يمكن أن تسعفنا في تحليل
نص أنتجته آلة حضارية بالغة التعقيد، فالأساس
في النص الحديث ليس هو الوظائف ودوائر الفعل
الكبرى، بل هي مجمل الجزئيات والتفاصيل التي
تعتبر بؤرة للتصنيفات الاجتماعية التي تبنى
انطلاقاً منها الأحكام الأيديولوجية»^(١٣٨).

٢.٥.٢. رأينا: نقد بنكراد مرتين في صياغته
لتحويلات النقد الغربي، ومغفل لواقع النص
الأدبي العربي في علاقته بسياقه وبتراثه:

إن هذه النزعة النقدية التي يحتكم إليها
الباحث في قراءته للنظريات الغربية الوافدة،
والتي تدعو إلى إعادة النظر في صياغة بعض
المفاهيم وبلورة بعض التصورات بما يتوافق مع
ما يطرحه النص الأدبي - بإمكاناته المتنوعة -
في أبعاده الدلالية والجمالية الثرية، على الرغم
من وجاهتها إلا أنها في ارتهاؤها إلى تحولات
النقد الأدبي الغربي (بول ريكور، جاك فونتانيني،
إيكو...)، وارتباطها بقراءته - هو وحده - دون
الالتفات إلى ما يمكن أن يمنحه الموروث الثقافي
لأمتنا العربية من حلول لبعض إشكالياتنا
الراهنة، وما يمكن أن تمنحه خصوصية النص
الأدبي العربي في تمييزه وفي علاقاته بتراثه هذا،
وبسياقه الثقافي وواقعه الموضوعي، تكون قد أخلت
بشروط أساسي، لا يمكن لأي مشروع نقدي عربي
متميز أن ينهض بدونه.

ولكن ما تجدر الإشارة إليه هنا، هو أن حدة
بعض هذه المآخذ الموجهة إلى هذه النظرية وقسوة
بعضها الآخر، لم تُثن بعض الدارسين الموضوعيين
عن الإشادة بها والاعتراف بما قدمه صاحبها من
جهود محمودة في مجال البحث العلمي عموماً، وفي
مجال تحليل النصوص السردية وضبط قوائين

١٣٩ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية
التناص)، م. س، ص ٩.

140- J. C. COQUET, La Sémiotique: L'école de
Paris, Op.Cit, p.15.

الدراسات المتعلقة بالأهواء^(١٤٤)، وللتدليل على ذلك يذهب الباحث إلى القول "يكفي أن نستحضر البرنامج المعرفي الذي يقوم بإنجازه حالياً راسي وفونتينى وزلبربارغ في ميدان سيميائيات الأهواء والدلالة التأويلية، أو ما يقوم به جان ماري فلوش في ميدان الصورة والتشكيل لكي تتضح لنا راهنية مقترحات كريماص ومدرسة باريس عامة"^(١٤٥).

الخاتمة:

يتضح لنا من خلال تقمصنا لبعض الانتقادات التي وُجّهت إلى نظرية غريماص، أن معظم هذه الانتقادات تركز بصفة عامة على ذلك التعقيد الذي يكتنف بعض المفاهيم التي بنى عليها نظريته، من حيث كونها تتطوي على صعوبات جمّة تجعل تمثيلها واستيعابها ومن ثمة إدراك أبعادها من قبل المتلقين أمراً في غاية الصعوبة. كما تركز - بالإضافة إلى هذا- على نزوعه اللات إلى تعميم نظريته كي تطبق على مختلف النصوص - سردية وغير سردية - مؤاخذاً عليه في هذا الإطار عدم انطباقها أو بالأحرى عدم ضبطها لميكانيزمات اشتغال النصوص السردية الطويلة والمتحولة كالرواية، وكذا الشعرية وبصفة خاصة في قضية التشاكل التعبيري.

فهي - النظرية - وإن كان يُعترف لها بفاعليتها في مجال الحكايات وبعض النصوص السردية القصيرة كالقصة - فإن الرواية تستعصي عليها - وهو حكم أثبتنا عدم صدقيته في حينه.

إن هذه المآخذ وإن حالف أصحابها الصواب في بعض ما ذهبوا إليه، فإن بعضها الآخر تنكب عن الحقيقة، وبالغ في مسعاه حينما لم يقدر تلك الإضافات النوعية التي حققتها هذه النظرية مقارنة بغيرها من النظريات السابقة والمعاصرة لها، ولم يراع طبيعتها ولا الفتوحات المنهجية التي أسست لها في سبيل علمنة عملية تحليل النصوص بمختلف أصنافها وتوجهاتها، وتيسير سبل البحث في مجالها.

١٤٤. المرجع نفسه، ص. ٢٤.

١٤٥ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفاعل البطل وفعله بمشروع رؤية جديدة حول نظرية الجهات (Théorie du modalité)^(١٤١)، والتي كان لها عميق الأثر في بحوث كل من جان كلود كوكي وجوزيف كورتيس - يعد إعلاناً عن ميلاد وجه جديد للسيميائية بدأ يتشكل شيئاً فشيئاً، كما يؤكد غريماص نفسه^(١٤٢).

٢.٦.٢. بنكراد: مقترحات غريماص لا تزال صالحة للاقترب من الوقائع وفهم آليات التدليل داخلها:

على الرغم من تلك الملاحظات الجوهرية - المشار إليها أعلاه - التي يبديها الباحث إزاء هذه النظرية من حيث كونها أصبحت متجاوزة، ومن حيث كون التحليل فيها يكتفي بالبحث عن تطابق مزعوم بين البنيات المتجلية من خلال المستوى التصويري (أي النص كما يمثل أمام القارئ) وبين المحافل الأولية حيث الدلالة صنافة وعلاقات غير موجّهة، أي قيم مجردة وخارج أي سياق، مما يجعل النصوص كلها - والحالة هذه - متشابهة، بحيث يكفي أن نتعرف بشكل دقيق على الوجه الظاهر للنص - أي نص - لكي نتبين الطريق نحو الضمني^(١٤٣)، إلا أن الباحث يقر صراحة، ويؤكد - من جهة أخرى - أن هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الطروحات الغريماصية، ولا تنفي "أهمية مقترحات السيميائيات في مجال المعنى وسيرورات تشكله. فلقد قدمت في هذا المجال، مقترحات بالغة الغنى والعمق ما تزال صالحة للاقترب من الوقائع وفهم آليات التدليل داخلها. وليس غريباً أن تسقط الأجزاء التفصيلية في هذه النظرية وتظل مع ذلك الروح التحليلية تغذي الكثير من الدراسات في ميدان الصورة، أو في ميادين

١٤١. ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص. ٧.
١٤٢. لمزيد من التفصيل، ينظر:

Le Discours et son sujet t.1 et t2, Klincksieck, Paris-1984.1985

Analyse sémiotique du discours, Hachette, Paris, 1991

١٤٢ - سعيد بنكراد، إمكانات النص ومحدودية النموذج، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، مرجع مذكور سابقاً، ص. ٢٢.

المراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية والمترجمة:

- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، ط ٢٠٠١.
- مقدمة في السيميائية السردية، دار القصة للنشر، الجزائر ٢٠٠٠م.
- سعيد بنكراد، شخصيات النص السردية (البناء الثقافي)، منشورات، كلية الآداب، مكناس ١٩٩٥.
- مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، ط. ١٩٩٤م.
- سعيد بوطاجين، الاشتغال العملي، دراسة سيميائية لرواية (غدا يوم جديد) لعبد الحميد بن هدوقة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط. ٢٠٠٠م.
- السيد إبراهيم، نظرية الرواية، دراسة لمناهج الأدبي في معالجة فن القصة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ١٩٩٨م.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العامة للنشر، لونغمان، مصر ١٩٩٦م.
- العادل خضر، يحكى أن... مقالات في التأويل القصصي، دار المعرفة للنشر، تونس، ٢٠٠٦.
- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.
- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط ١٩٨٦، ٢م.
- دينامية النص (تنظير وانجاز)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، ١٩٩٤م.
- محمد الناصر العجمي، في الخطاب السردية (نظرية غريماس)، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩٣م.

ثانياً- الرسائل الجامعية المخطوطة باللغة العربية:

- رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، رواية (نوار اللوز نموذجاً)، رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي (النقد السيميائي)، جامعة تلمسان ١٩٩٥م
- نادية بوشفرة، المسار السردية في الموروث الحكائي (سردية الحكاية عند غريماس)، رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، قسم الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان ١٩٩٩/٢٠٠٠م.

ثالثاً - الدوريات والمجلات العربية:

- بحوث سيميائية، مجلة محكمة يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة تلمسان، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، العدد ١، سبتمبر ٢٠٠٢م.
- تجليات الحدأة، مجلة فصلية تصدر عن معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، الجزائر، العدد ٢، جوان ١٩٩٤.
- دراسات سيميائية أدبية لسانية، مجلة فصلية متخصصة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، العدد ١، خريف ١٩٨٧م.

- .علامات في النقد، النادي الأدبي، بجدة، السعودية، المجلد ٢، الجزء ٥، سبتمبر ١٩٩٦م.
- .علامات، مجلة ثقافية محكمة، مكناس المغرب، العدد، ١٥، ٢٠٠١م.
- العدد، ١٦، ٢٠٠١م.
- العدد ١٧. ٢٠٠٢م
- الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العددان: ٦٧/٦٨.
- . كتابات معاصرة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، العدد ٣٨، ١٩٩٨م.
- مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمجبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد ١، ٢٠٠٥،

رابعا - المراجع الأجنبية:

- ALGIRDAS Julien GREIMAS, du Sens; Essais sémiotiques, Paris, seuil 1970.
- Du sens II: Essai sémiotiques, Ed, Seuil ; Col. Poétique Paris 1983.
- Maupassant, la sémiotiques du texte, Exercices pratique. Paris, le seuil 1976.
- Sémantique structurale, recherche de méthode, Larousse, Paris 1966.
- Anne UBERSFELD, Lire le théâtre, Ed. Sociales, Paris 1982.
- Anne HENault, les enjeux de la sémiotique, P.U.F. Paris, 1979.
- Claude BREMOND, logique du récit (Introduction), Col. Poétique. Ed. Seuil, Paris 1973.
- Ferdinand de SAUSSURE, Cours de linguistique générale, Paris, Payot, 1978.
- François RASTIER, Essai de sémiotique discursive.
- Gérard GENETTE, Figures II, Ed. Seuil, Paris 1972.
- Figures III. Ed. Seuil collection poétique, Paris 1973.
- Groupe D'ENTREVERNES, Analyse sémiotique des textes, Introduction théorie pratique, presses universitaire de Lyon, 4^{ème}, Paris 1984.
- Jacques FONTANILLE, sémiotique et littérature, Essais de méthode, P.U.F. Paris 1999.
- Jean Claude COQUET, « La sémiologie en France » in le champ sémiologique, sous la direction de André Hello, avec la participation de M. Arrivé, P. Range, J.C. Brodeun, Ed. complexes, Bruxelles 1979.
- Le discours et son sujet, pratique de la grammaire modale, clincksiek, Paris 1985.
- Sémiotique : l'Ecole de Paris, Hachette université, Paris 1982.



- Joseph COURTES, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Ed. Seuil, Paris 1973.

- Julia KRISTIVA, le texte du roman, Mouton, The Hgue, Paris 1970.

خامسا- المعاجم والقواميس باللغة الفرنسية:

-ALGIRDAS Julien GREIMAS, Joseph courtes, sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris 1979.

- Oswald DUCROT, Tzevtan TODOROV, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Paris 1972.